

المجلد العاشر

٧٠ (دمشق) تشرين الاول سنة ١٩٢٦م الموافق ربيع الاول و ربيع الآخر سنة ١٣٤٥هـ

الغريب الفصيح في العامي

ربما ينكر بعض من درس علم البيان هذا العنواف اذ يرى الغريب موصوفاً بالفصيح ، وقد تعلم ان النصاحة في المفرد خلوصه من الغرابة فكيف يكون اذاً الغريب فصيحاً ؟؟ فاستمع لما يتلى عليك من معنى الغريب والفصيح .

الغريب — هو في عرفهم البعيد عن الاستعمال ، وفسر علماء البيان الغرابة بكون الكلمة غير ظاهرة المعنى ولا مأنوسة الاستعمال ويريدون بالاستعمال استعمال الفصحاء فالغرابة بنفسير علماء البيان هذا أخص من البعيدة عن الاستعمال فاذا كانت الكلمة مستعذبة اللفظ خفيفة على اللسان غير حوشية ولا مستنكرة فكيف تكون غير فصيحة لانها غير مأنوسة . واذا كانت اللغة تقبل بعض الكلمات الأعجمية اذا صقلت وشذبت وجرت مجرى كلمات اللغة العربية فكيف باللفظ العذب الجميل من كلمات المصقول الجاري مجرى غيره من الفاظها ، وان كان غير مأنوس وانه مما بعد عن المؤلف فلا يصل الى درجة الأعجمي المعرب .

على ان مثل هذا البحث لم يهمله أئمة اللغة فقد قال ابن درستويه وحكاه في المزهري « ليس كما ترك الفصحاء استعمال بخطاء فقد يتركون استعمال الفصيح لاستغنائهم بفصيح آخر او لعلية غير ذلك » وقال ايضاً « انما الفصيح ما أفصح عن المعنى واستقام لفظه على القياس لا ما كثر استعماله » وقال السبكي في عروس الافراح : « ينبغي ان تحمل الغرابة بالنسبة الى العرب العرباء لا بالنسبة الى استعمال الناس والا لكاف جميع ما في كتب الغريب غير فصيح والقطع بخلافه » .

وبعد فإن في القرآن والحديث الشريف (وهما ما هما لا يدانيهما في الفصاحة كلام) من الغريب ما جرد الأئمة الاعلام وفطاحل اللغة أفلامهم لشرحهم كالمقابلة والزمخشري وكتبهما في غريب القرآن وغريب الحديث معروفة ، فهل كان هذا الغريب غير فصيح ، واسمه كما ترى الغريب ؟ . والظاهر من كلام ثعلب أن مدار الفصاحة في الكلمة على كثرة استعمال العرب لها والمراد بالعرب الموثوق بعربيتهم فلا ينافي الفصاحة قلة استعمال المحدثين لها . نعم إن من الغريب المستكروه الحوشي وهو الغامض المغلق الذي لا يألفه الذوق . قال ابن رشيق في العمدة :

« كأنها منسوبة إلى الحوش (بضم أوله) قالوا وهي بقايا إبل بارض غلب عليها الجن فعمرتها ونفت عنها الناس لا يطوؤها انسي إلا خبلوه » .

وفي القاموس الحوشي بالضم الغامض من الكلام والمظلم من الليالي والحوشي من الأبل وغيرها وهو منسوب إلى الحوش وهو بلاد الجن ، وفي الأساس وأصله من الأبل الحوشية وهي التي يزعمون أن الحول نَعَم الجن قد ضربت فيها ويسمونها الحوش قال رؤبة :

(جرت رحانا من بلاد الحوش)

وكيفما كانت هذه الأساطير فإنها تدل على وحشية الحوشي .

الفصيح — هو العربي الخالي من اللحن ومنه أفصح إذا تكلم بالعربية وأفصح الأعجمي خلس كلامه من اللحن والفصاحة الخلوص والابانة ومنه أفصح الصبح أي استبان ، واللبن الفصيح الخالص من الرغوة ويوم مفصح بلا غيم ولا قر ، والفصيح في عرف أهل البيان خلوصه في المفرد من تنافر الحروف والغرابة ومخالفة القياس فالأول مستشزرات والثاني كالجرشي والثالث كالأجل في قول امرئ القيس (غداؤه مستشزرات إلى العلى) وقول أبي الطيب (كريم الجرشي شريف النسب) وقول رؤبة (الحمد لله العلي الأجل) . والفصاحة في الكلام خلوصه من ضعف التأليف وتنافر السمات والنمقيد مع فصاحتها وليس المقام بمشع للبحث في ذلك . وقد كانت لغات العرب قبل الإسلام مختلفة باختلاف القبائل ومواطنها

فاختلاف في إبدال الحروف كاولئك وأولئك وعن^(١) . واختلاف في الحركات كفتح حرف المضارعة في لغة قريش وكسرها في لغة اسد وقيس . واختلاف في التقديم والتأخير كصاعقة وصاقعة . واختلاف في الادغام نحو مهتدون ومهدون . واختلاف في الزيادة نحو انظروا وانظوروا . واختلاف في التضاد اقعده وثب^(٢) بمعنى اجلس في لغة حمير الى غير ذلك .

وكانت لغة قريش أفصح اللغات قال ابو الحسين احمد بن فارس في فقه اللغة « اجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لاشعارهم والعلماء بلغاتهم وايامهم ومحالهم ان قريشاً أفصح العرب ألسنةً وأصفاهم لغةً وذلك ان الله جل ثناؤه اختارهم من جميع العرب واصطفاهم واختار منهم نبي الرحمة محمداً صلى الله عليه وسلم فجعل قريشاً قطان حرمه وجبران بيته الحرام وولائه فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفتدون الى مكة للحج ويتحاضرون الى قريش في امورهم وكانت قريش تعلمهم مناسكهم وتحكم

(١) ومنه عنعنة تميم وكشكشة اسد وكسكسة ربيعة فقد كان بنو تميم يلقبون همزة (أن) عينا وبعضهم يلقبها آء . وكان بنو اسد يبدلون الكاف شينا فيقولون عايش ير يدون عليك او كانوا يصلون بالكاف شينا فيقولون عليكش ولا يزال لهذه اللغة اثر في عامية جبل عامل اذ يدخلون الشين بعد كاف الخطاب اذا وقعت في حيز النفي وفي بعض الجهات من لبنان يدخلونها بعدها في المثبت والنفي . وكان بنو ربيعة كبني اسد الا ان شين اسد سين عند ربيعة .

(٢) وقال ابن فارس : روي ان زيدا بن عبدالله بن دارم وفد على بعض ملوك حمير فألفاه في متصيده له على جبل مشرف فسلم عليه وانتسب له فقال له الملك رثب (اي اجلس) وظن الرجل انه امره بالوثوب فقال لتجدني ايها الملك مطوآعا ثم وثب من الجبل فهلك فقال الملك ما شأنه بخبروه بقصته وغلطه في السكبة فقال اما انه ليس عندنا عربة من دخل ظمار حمير اي من دخل ظفار وهي المدينة التي كان فيها فليتعلم الحميرية انتهى كلام ابن فارس . والأئمة لم يجعلوا الحميرية لغة غير العربية بل بعضاً منها بدليل ذكرهم الألفاظ الحميرية في مختلف الألفاظ العربية .

بينهم ولم تزل العرب تعرف لقريش فضايها عليهم وتسميهم (أهل الله) لانهم الصريح من ولد اسماعيل عليه السلام لم تشبههم شائبة ولم تنقلهم عن مناسكهم نافلة فضيلة من الله جل ثناؤه لم وتشريفاً اذ جعلهم رهط نبيه الاذنين وعترته الصالحين . وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها اذا أتتهم الوفود من العرب تخبروا من تلك اللغات الى مخازنهم وسلائقهم التي طبعوا عليها فصاروا بذلك أفصح العرب » .

ثم نزل القرآن وجاءت السنة النبوية بلغة قريش وما اليهم من العرب من عليا هواذن كسعد وجشم ابني بكر وثقيف فكانت لغة القرآن هي الحية على طول الدهر وكرور العصور ولولاها لكثرت تشعب اللغة العربية ولم يكن للفصحى ما لها اليوم من الشأن .

العامي — العامي منسوب الى العامة وهم عامة الناس ويقال لهم الخاصة والعامة تلك الرجرجة التي عناها امير المؤمنين بقوله الناس صنفان عالم ومتعلم ورجرجة دون ذلك ينقعون مع كل ناعق . انت اللغات يؤثر فيها تطاول المدة واختلاط الامم فيدخلها اللحن ثم التحريف فاذا امتدت المدة زاد ذلك فيها وبعد الحادث عن القديم حتى يكون الحادث بعد ذلك لغة قائمة برأسها وهكذا كان تشعب اللغات وكان ذلك على أشده قبل ان تعني كل أمة بلغتها وتدونها ، واللغة التي دوت بقيت معروفة بعد موتها . ان السريانية والعربية والعبرية أخوات لأُم واحدة ماتت ولم تعرف لانها لم تدون ولكن اليونانية القديمة التي دوتها أهلها والعربية التي عني رجالها وأتمتها بها لم تموت بالنسبة للعامة منهما الا ان اليونانية القديمة بعد ان اتخذت اليونانية الحديثة لغة الكتابة والتخاطب أصبحت أثراً يعني به الخاصة من أهلها وطلابها .

واما العربية فلم يكن لعاميتها هذه المكانة وهذه العناية لمكان اللغة الفصحى من الكتاب والسنة ولمزيد عنايتها أبناءها بها فبقيت لغة الكتابة ولم تسلم مع ذلك اسلات اقلام بعض الكتاب من لحنا العامة ولكن الأئمة لم يغفلوا عن ذلك فجردوا لنقدها حتى يبعد عنها الكتبة وينبه اليها اولو الغفلة .

كانت العامة تبعد عن الفصحى بتطاول المدة يوم أديلت دول العرب وامتد فيهم ملك الأعاجم وكثرت اختلاط العجم بالعروبة وقضت سياسة ملوك الأفطار العربية من الأعاجم نزعة ولغة أن لا يأبهوا للعربية .

كان ذلك الي حين ثم انبعث بصيص النور الى اللغة لان روح الحياة لا بد ان تنبض اذا خف عنها كابوس المرض فأخذت اللغة في الانعماش في العصر الاخير وظهرت العصبية القومية وانما الأهم بلغاتها فنهض العرب مع الناهضين لانعاش الفصحى من لغتهم نهضة مثاقلة ولكنها استمرت فتمت وزهر عصرها في مصر ثم في الشام والعراق وكان للجرائد والمجلات اثر صالح في ذلك فكثرت الخاصة بين العامة وأولع العامة بالقرب من الخاصة فكان من ذلك فاتحة امل جديد . ولوان للعرب دولة مستقلة لسارت باللغة شوطاً صالحاً .

(الفصيح والعامي من حيث الاستعمال) — لم تخرج العامية مع تحريفها وعدم ضبط قواعدها عن كونها لغة عربية والتحريف كان معروفاً باختلاف لغات العرب كما سبق الكلام عليه وان كان بين الفصحى والعامي أشد وهو في العامي أظير وأكثر وبه ألقى وألقى فالعامية بالنسبة الى الفصحى وهذه بالنسبة الى المتقدمين والمحدثين على ضروب .

(١) الفاظ انفرد بها متقدمو العرب وتركها المحدثون . إما لاستعمالهم مرادفها كعيسور في الناقة الشديدة السرعة استعملوا مكانها علندة . او لأنها من الحوئي البعيد عن الطبع كقولهم مخربق لينباع^(١) « قال ابن فارس » وكذلك يعلمون معنى ما نستغربه اليوم من قولنا عيسور في الناقة وعيسجور^(٢) وامرأة خناني وفرس أشق أمق^(٣) خبقي^(٤) ذهب هذا كله بذهاب اهله ولم يبق عندنا الا الرسم الذي تراه .

او تركها المحدثون لانها غير مأنوسة لهم وان لم تكن حوشية ولا ثقيلة كأجبي

(١) في القاموس مخربق لينباع اي مطرق لينب وفي نوادر ابي زيد ما نصه : ويقال في مثل مخربق لينباق وقد باق يبق بوقاً اذا اظهر والمخربق الساكت على السوء لينباق بها وقال بعضهم مخربق لينباع والمبباع الذي يباع بالشر الذي في جوفه فيظهره . (٢) العيسجور كالعيسور الشديدة السرعة . (٣) اشق امق كلتاها بمعنى الطويل وخبقي كهخف سريع .

- في الحديث الشريف من أجبي فقد أرى (١) .
- (٢) الفاظ استعمالها المتقدمون وخواص المحدثين ولم تعرفها العامة كقولهم طخية عميةاء ومرة سوداء .
- (٣) الفاظ استعمالها العرب وعرفتها العامة وقل استعمال الخاصة لها فلم تشع بينها وهو ما نعي بالبحث فيه الآن .
- (٤) الفاظ للعرب فيها لغتان أو أكثر أخذت العامة ببعضها والخاصة ببعض آخر كقوله عند العامة وقفز عند الخاصة وما فيها دوامري (نومري) عند العامة وما فيها ديار عند الخاصة .
- (٥) الفاظ استعمالها العرب قديمهم وحديثهم وقل استعمال العامة لها فكانت من ذلك مصونة لم تبدل والفرق بين هذا الضرب والضرب الثاني ان ذلك لم تعرفه العامة أو لم تكد تعرفه وهذا عرفته ولم تألفه كأمررت الحبل وأحصته أي فتلته وحبل مر ومحصد أي مفتول وقد عرفت العامة عقدة مرة أي محكمة العقد .
- (٦) ألفاظ مثل ذلك ولكنها ابتدأت منذ عركتها العامة بالسنتها وامتننتها بغيرها فاجتنبتها الخاصة وأعرضت عنها مثل قول العامة اصطفل أي افعل ما تريد محرفة عن افصل افتعال من الفصل أي اتخذ الفصل الذي تريده من عملك .
- (٧) ألفاظ مثل ذلك كثيرة الدوران في الكلام لا يستغنى عنها فلم يضرها كثرة الاستعمال لمكان الحاجة اليها كقولك شربت ماءً وقرأت كتاباً وهذا أكثر الكلام العربي .

(٨) ألفاظ حرفتها العامة باستعمالها إلى معنى مستكره فتركت الخاصة استعمالها في معناها الأولى لمكان الاستكره في المعنى الثاني كالصرم بمعنى القطيعة والغائط للمنخفض من الأرض حرفت العامة الكلمة الأولى إلى معنى السرم والثانية إلى معنى الخراء .

(٩) الأجباء بيع الزرع قبل بدو صلاحه والأرباء الدخول في الربا ومعنى الحديث من باع زرعاً قبل بدو صلاحه فقد دخل في الربا واللازم من ذلك عدم صحة مثل هذا البيع .

وقد رأيت في مراجعائي كلمات في اللغة من الضربين الثالث والرابع قل استعمال الخاصة لها حتى كادت تعد غريبة عندهم ولكنها كثيرة الورد في كلام العامة فعينت بذكرها وشرحها تذكراً للباحثين وبلغه للتأديبين .

(١) أرم ، مأروم — يقولون للصبي اذا كان مكتمز اللحم مع قصر في قامته هو مأروم أرمًا وبداه مأرومتان اذا كانتا مجدولتين . ويقولون أرم فلان اللقمة اذا قطع رأسها بأستانه . وابرة مأرومة قطع خرمها او رأسها . فالأرم عندهم للحكم القتل المكتمز وللقطع . وفي اللغة جارية مأرومة محكمة القتل والطبي عن المخصص وفي القاموس مأرومة حسنة الأرم اي مجدولة الخلق . وفي القاموس ايضاً أرمت السنة القوم قطعتهم وأرم ما على المائدة اكله وبابه ضرب .

(٢) أرامل ، أرملة — ويسمون ما بقي في الارض من اصول نبات الباذنجان ونحوه الى السنة الثانية أرامل . وفي اللغة قال ابن الاعرابي أرامل العرفج اصوله وانشد :

وفي القاموس أرمولة العرفج جذوره جمعه أرامل وأراميل .

(٣) افز — ويقولون افز الزيت فوق الماء اذا خلص من الماء وعلا فوقه وافزت الزبدة اذا علت الخيض . وفي اللغة افز يأفز اذا وثب ومثله ايز ونفز عن ابي عبيد وبابه ضرب . وفي القاموس الأفز الوثب كأنه مقلوب من الوفز وكله بمعنى القفز والوثب .

(٤) تبجح ، بجحة ، بجوح ، مبجح — ويقولون فلان تبجح بالمكان اذا اتسع عليه وهذا الثوب مبجح اي واسع وفلان بجوح اي كريم يوسع على الناس من ماله . وفي اللغة تبجح بالمكان تمكن من المقام والحلول والمجشي الواسع في النفقة .

(٥) برطم ، مبرطم — ويقولون في غير احترام برطم فلان اذا تضخمت شفتاه من الغضب ويقولون للعبد الضخم الشفه هو مبرطم بصيغة الفاعل . وفي اللغة قال ابو عبيد البرطام الضخم الشفه وقال ابن دريد هو البراطم وانشد :

مبرطم برطمة الغضبان شفه ليست على انسان

وفي القاموس مثل ذلك وزاد . البرطمة الانتفاخ غضباً .

(٦) بصاصة ، بص ، بصاص — ويقولون بُص بصيغة الامر اي انظر وفلان بصاص يبصر جيداً . ويقولون اذا أخطأ بصر الرجل العتب على البصاصات يريدون جمع بصاصة وهي العين . وفي اللغة حكى ابن سيده البصاصة العين صفة غالبية . وفي القاموس لانها تبرق وتلغ . وفيه ايضاً بص الجرو ففتح عينيه كبصص . وفي الاساس رماه بالبصاصة وهي العين .

(٧) بعزق ، بعزق — ويقولون بعزق الحب والماء وبعسقه بالزاي والسين اذا نثار من بين يديه بان طفق كياله او انخرق ماعونه وراح هذا الشيء بعزقه اذا ذهب مثلاً . وفي اللغة البعثة خروج الماء من غائل حوض او جابية قاله ابن دريد وتبعثق الماء من الحوض اذا انكسرت منه ناحية فخرج منها عن ابن السكيت وابدال الثاء المثلثة بالسين مألوف معروف عند العامة وابدال السين زايًا غير منكور في كلامهم . (٨) بغو ، بغوة — ويقولون الثمر اذا قطف قبل ينعمه هو بغو والثمرة بغوة . وفي اللغة البغو الثمرة قبل نضاجها . وفي المخصص عن ابي حنيفة واذا عقد الشجر فالثمرة غضة وبغوة ومعددة والجمع بغو ومعد .

(٩) التأتأة — ويقولون تأتأ على الباب اذا ضرب ضرباً له صوت خفيف وكذلك تأتأ بالعصا على الارض والمصدر التأتأة وربما يلفظها بعضهم بالقاف فتكون من حكاية الصوت (طقي) وفي اللغة كما في القاموس التأتأة حكاية الصوت .

(١٠) تخ ، تختخ — ويقولون تخ العجين اذا زاد اختماره . وفي اللغة التخب العجين الخامض وقد تخ تخوخة عن القاموس .

(١١) التلأم ، اتلام ، تلام ، تلّم — ويقولون التلّم وزان فجر لما يشقه الحراث في الارض ويجمعه على اتلام وتلام واشتقوا منها فعلاً فقالوا تلّم الارض اذا شق فيها اتلاماً . وفي اللغة حكى ابن سيده عن ابي حاتم يقال لكل واحد من أخاديد الارض تلام والجمع تلّم (ككتاب وكتب) وعن ابي حنيفة التلّم (محرّكة) مشق انكراب في الارض بلغة اهل اليمن والغور والجمع اتلام وفي القاموس عين قول ابي حنيفة او كل اخدود من الارض . اما تسكينها عند العامة فله نظائر ومثله قلعة وقلعة فالعامة لا تعرف التخر بك وكثير من الأئمة ينكر التسكين .

(١٢) ثخين ، ثخانة — ويقولون فلان ثخين اذا كانت ثقيلاً على الطبع وفيه ثخانة اذا كان غير خفيف الروح . وفي اللغة كما في المخصص رجل ثخين اي ثقل والثخنة الثقل .

(١٣) المجاحشة — ويقولون فلان مجاحش فلاناً والاولاد بمجاشون اي يزحم بعضهم بعضاً في اللعب . وفي اللغة حكى ابن سيده عن الاصمعي جاحشته وجاحسته اذا زاحمته وفي القاموس جاحشه دافعه . وفي الاساس جاحش عن خيط رقبتة اذا دافع عن نفسه .

(١٤) جلط ، مجلوط — ويقولون المجلط الجرح وجلط وهو مجلوط اي زال عنه الجلد ويقولون فلان يجلط اي يكذب . وفي اللغة عن القاموس جلط يجلط من باب ضرب كذب . والجلد عن الظبية كسطه .

(١٥) جلع ، جلاعة ، مجلوع ، مجلوء ، جلاء ، جلاآن — ويقولون فلاان جلع وزان كنف وبه جلاعة كصفاء وهو مجلوع وربما قبلوا العين همزة فقالوا مجلوء (وله نظائر في كلامهم) وجعلوا المصدر مع القلب جلاً وزان حمل وجلاآن وزان دوران يريدون من ذلك قلة الحياء مع دالة ممقوتة وحذائق باردة . وفي اللغة الجلاعة قلة الحياء قال ابو عبيد الجلمعة التي اقلت عنهما الحياء والاسم الجلاعة بالضم قال ابن دريد هو الجلع ككتف ومثله عن القاموس .

(١٦) جنبذه — ويقولون فلان مهنه جنبذه بالفتح وجنبز عليه اذا رفع الشيء الى اعلى ما يقدر عليه من المدح وفلان جنبازي اذا كانت يغر الناس بمدح السلعة او المبيع اكثر من الحقيقة . وفي اللغة عن المخصص الجنبذه (بالضم) وهو ما ارتفع من كل شيء فاستعملها بالمعنى العامي مجاز .

(١٧) جاشت — ويقولون جاشت نفسي اذا تحركت للتي وغثت . وفي اللغة جاشت النفس غثت ودارت للغثيان .

(١٨) جاض ، جوض — ويقولون جاض فلان من الألم اذا كانت ينقلب في مرقده ضجراً منه ونفوراً وجاض من الحر اذا كان يريد التخلص ولا يقدر فهو يفر منه ولا يستطيع وفلان يفوح في قيده اذا كان لا ينفك يحاول التخلص منه ولا يقدر .

وفي اللغة جاض يجيض حاد وعدل وفيه الاساس جاضوا عن العدو جيضة منكرة
نقروا قال القطامي :

وتري لجيضمهن عند رحيلنا وهلاً كأن بهن جنة ادلق

(١٩) حزكه ، يزكه — ويقولون حزك فلان (بالشديد) فلاناً بالشئ الفلاني
اذا حمّله إياه على كره منه وألزمه به وشده عليه وربما أبدلوا الحاء ياءاً فقالوا يزكه فيه .
وفي اللغة عن القاموس حزكه (بالتخفيف) يحزكه عصبه وضغطه وبالجل شدّه
واحتزك بالثوب احتزم .

(٢٠) حكمة — ويقولون جزى الله فلاناً فقد فك حكائي اي حل معقد امري
وفرّج كربني . وفي اللغة عن القاموس حكل علي الامر أشكل كأ حكل وزناً ومعنى .

(٢١) تحلحل — ويقولون فلان جالس في مكانه لا يتحلحل وتحلحل من موضعه
اذا تحرك قليلاً . وفي اللغة كما في النحوص واما التحلحل فهو التحرك والذهاب وعكس
تحلحل تلحلم لفظاً ومعنى قال ابن قتيبة وهي من الاضداد وأصل تحلحل تحلل
أبدلت اللام الثانية حاءً كما قالوا في نكهم (لبس الحكمة اي الفلسفة نكسكم وتمل
من تملل وكفكف من كف) .

(٢٢) انحمص ، محمص — ويقولون انحمص فلان اذا انقبض طبعه وغضب
عاتباً ولما اذا انت محمص . وفي اللغة انحمص فلان انقبض وتضاءل وتحمص انقبض
فاستمال العامة لها من المجاز .

(٢٣) محول — ويقولون شجر محول اذا ترك جناته الى السنة القابلة وارض
محولة ترك زرعها الى الحول . وفي اللغة كما في الاساس تحاويل الارض وتحويلاتها
ان تزرع سنة وسنة لا . للنعوية .

(٢٤) خبّص تخبّص خبص — ويقولون لمن يخاطب في كلامه على غير انتظام
فيه خبّص في كلامه وكلامه تخبّص ويذهبون الى المجاز فيقولون خبصه مخففة اذا
ألقى ثقلًا عليه فكأنه خلط بعض اعضائه ببعض لثقله . وفي اللغة الخبص الخلط
ومنه الخبيص وهو المعمول من التمر والسمن وخبّص تخبّصاً خاط .

(٢٥) خَبَطَ — ويقولون فلان خبط فلاناً بالعصا اذا ضرب به . وفيه اللغة خبط الشجر يخبطه خبطاً حتّ الورق عنه ضرباً بالعصي .

(٢٦) المخارم — ويقولون فلان يسلك المخارم الضيقة . ومالك ولهذه المخارم يريدون الطرق والمسالك الضيقة العسرة على السالك . وفي اللغة كما في القاموس الخارم الطرق في الغمّاط (والغمّاط وزان رعلّ من الارض غير السهلة) .

(٢٧) خلف — ويقولون لكما ينتج من النبات والشجر مرة ثانية في غير أوانه خلف بكسر فسكون وكذلك ورق الشجر وأغصانه اذا خرجت في غير أوانها . وفي اللغة كما في القاموس في كلامه على الخلف : او ثمر يخرج بعد ثمر او نبات ورق دون ورق وشيء يحمله الكرم بعدما يسود العنب فيقطع العنب وهو غض أخضر .

(٢٨) درادير — ويقولون لما بات أسنان الشيخ اذا سقطت أسنانه وفيه الصبي قبل ان يذبت (درادير) وزان عصفير ويقولون اكلت الشيء على دراديري اي منبت اسناني . وفي اللغة الدردر وزان قنفذ مغارز الاسنان في العظم عن ابن سيده او هي مغارز اسنان الصبي او هي قبل نباتها وبعد سقوطها عن القاموس وجمعها الدرادير .

(٢٩) الدعك ، دعكت ، جمعكته — ويقولون دعكت الثياب اذا لبستها حتى اذهبت بعض جدتها ودعكت الثوب والجلد التثما وربما حرفوها فقلبوا الدال جيماً فقالوا جمعكته والمصدر الجمعك . وفي اللغة دعكت الثوب دعكاً التت خشونه .

(٣٠) دغش ، دغشة ، دغوش — ويقولون دغش فلان على القوم اتاهم في ظلمة آخر الليل ويسمونها دغشة . ودغوش مصدر دغش عندهم . وفي اللغة عن القاموس دغش عليهم كمنع بالمعجمة هم وفي الظلام دخل كأ دغش والدغش محرّكة الظلمة فكان العامة خصتها بما كان منها آخر الليل فهو من استعمال المطلق في المقيّد .

(٣١) الدفر — ويقولون دفرت الباب دفرة قوية اذا دفعته بمنف . وفي اللغة عن القاموس دفرته عني دفعته ودفر في صدره واذا دنا منك فادفره وفيه القاموس الدفر الدفع في الصدر .

(٣٢) دندن يدندن — ويقولون فلان يدندن اذا هينم بكلام لا يفهم . وفي اللغة الدندنة صوت الذباب والزنابير ونحوهما والكلام الذي لا يفهم عن ابي حاتم .
 (٣٣) مدماك — ويقولون لكل صف من الحجارة ينميه الباني سافاً واحداً مدماك بكسر فسكون . وفي اللغة المدماك هو الساف في البناء وقال ابو عبيدة كما حكاه ابن سيده والساف في البناء كل صف من اللبن واهل الحجاز يسمونه المدماك .
 (٣٤) تدهك ، مدهك ، دهكة — ويقولون تدهك جسمي فهو مدهك واصابي في جسمي دهكة وذلك اذا ضني من التعب وكثرة الحركة . وفي اللغة الدهكة (بالقاف) هي دوران اللحم في القدر كما حكاه صاحب العين فهي اذا من الحجاز وابدال القاف كافياً معروفاً في كلامهم بل هي لغة فربق منهم .

(٣٥) دوكة — ويقولون صار بين القوم دوكة بفتح فسكون اي فتنة وشر وعمل دوكة كبيرة اي ضجة واختلاط في فتنة وشر . وفي اللغة كما في نوادر الجيزيد قال ابو الحسن وقع في غيرة شر اذا وقع في اختلاط ويقال وقع في دوكة وبوكة . وفي القاموس دالك القوم وقعوا في اختلاط ومرضوا . ووقعوا في دوكة ويضم شر وخصومة .

(٣٦) دومري — ويقولون اذا خلت الدار : ما فيها دومري بالذال المهملة المضمومة يريدون ليس فيها احد . وفي اللغة دومري بالفاء المثناة الفوقية قال ابن السكيت ما بها دومري وما رايت دومرياً أحسن منها وكلها بمعنى واحد . وفي القاموس وما بالدار دومري بضم التاء والميم احد .

(٣٧) رخص — ويقولون للغصن ونحوه اذا كان طرياً ناعماً رخص وزان خصر وولد جسمه رخص . وفي اللغة الرخص الشيء الناعم : ان وصفت به المرأة فرخاصتها كنعمة بشرتها ورقمتها وكذلك رخاصة اناملها وان وصفت به البنان فرخاصتها هشاشتها وقد رخص رخاصة (كظرف ظرافة) وثوب رخيص ناعم عن صاحب العين .

« للكلام صلة » النبطية (جبل عامل) : **احمر رضا**

عضو المجمع العلمي

تاريخ الطب عند العرب .

أيها السادة :

لا يسعني ان افوه ببنت شفة قبل ان احيي بكل اجلال وتعظيم صاحب ذاك الروح الزكي الذي شيد هذا المعهد العلمي والتم بشفتي معرفة الجليل تلك الايادي البيضاء التي احييت دارس آثاره وفحت مغلق ابوابه . وأثنى الشناء الطيب على حضرات رئيسه وأعضائه الاساتذة الأجلاء . واشكر حضور هذا المجلس الكرام لما يبدونه من الاهتمام بترويج بضاعة العلم وإحياء آثار السلف المتجي بنشريفكم أيها السادة لسماع محاضرة هذا العاجز . في ساعة ثنوق فيها النفس للرياضة والنزهة مما يستوجب لكم شكري ويستطير عليكم وابل بركات تلك الأرواح العظيمة التي ترفرف الآن في بهو هذا المحفل منعشة لذكر أسمائها وسرد عظيم أعمالها .

فعليك منا سلام الله أيها الأرواح الطاهرة أرواح سلفنا الصالح أرواح تلك الشمس الساطعة التي أضاءت بكواكب معارفها ظلمات القرون المتوسطة ، وهدت بما تركته من أعمالها خلال القرون الأخيرة ، وخذلت بعظيم جهادها اسم العرب محفوفاً بالاجلال والتعظيم ، رغم ما يلي من لباسهم وما شوهدت الايام من ناضر محياهم . غربت تلك الشمس وبات العالم من بعدها رجلين شأن حال دعاة الإصلاح في كل عصر وقطر . رجل مقتون وآخر محزون ، رجل مادح وآخر قادح . فربق ذهب الى ان العرب هم الذين ابتدعوا الطب وأوجدوه ، واشكروا جميع فروعه وصنفوه ، وفربق ذهب الى ان العرب أخذوا الطب اليوناني فقلبه رأساً على عقب فكان لهم مشابهة القلم للكتاب او الهيكل العظمي للجسم . وذهب آخرون الى عكس ذلك من ان العرب لم يكونوا سوى واسطة نقل صماء او حرف جر بلا معنى ما بين الأطباء الأقدمين والمتأخرين نقلوا على ظهورهم معارف الأقدمين ولم ترمقها عيونهم ولما تلسها أناملهم . فكان نصيبهم من الفضل نصيب النافل لانصيب الواضع عدا انه لم ينبغ

(١) محاضرة ألقاها الاستاذ الدكتور أسعد الحكيم من أعضاء المجمع العلمي العربي

في ردهة المجمع في دمشق يوم الجمعة في ٣٠ آذار سنة ١٩٢٣ م .

فيهم طيب ولا حكيم . وزاد قوم على ذلك من بشاعة التحامل فقالوا ان العرب قد شوهوا وجه الطب القديم بما أدخلوه عليه من الخرافات والتدجيل مما عبث به وبالانسانية أعصاراً وأدهاراً .

فمن الحق يا ترى ؟ وما ذا يكون القول الفصل ما بين هذه الأقوال المتضاربة والأحكام المتناقضة ؟ هذا ما نوخيت البحث فيه ، وأنا على يقين تام باني لا أفي هذا الموضوع حقه ولكن وشل خير من سراب ووميض برق خير من ظلام وحرارة خفيفة خير من جمود مستمر .
في كل من تلك الأقوال المتضاربة إفراط ونفريط وخطأ وصواب . اما الحقيقة فهي مترددة ما بين طرفي النقيض .

لم يخلق العرب الطب ولم يبتدعه كما انهم لم يكونوا واسطة نقل صماء ما بين الأقدمين والمتأخرين .

ليس الطب من حيث مبادئه من صنع أمة من الأمم تمن على العالم بايجاده . بل هو حركة من حركات الانسان الاول سيق اليها بدافع فطري ، هو حس المحافظة على الحياة وتجنب الآلام . فكان بضغط على جراحه ليقطع النزف او يبطل الحس ، ويجنب الحركة تسكيناً للألم ، وبتمس الحرارة اثناء البرودة ، ويتطلب البرودة خلال الحى من الافعال الغريزية التي نشاهد ما عند جميع الحيوانات . ثم اخذ هذا الحس الطبيعي يتحول بالتدرج الى إدراك ثم الى معرفة ثم الى علم وفقاً لسنة الارتقاء .

واول من عني من الامم بجمع ما انتهى اليه الانسان بسائق الطبيعة والتصادف من الوسائط التي من شأنها دفع الأمراض ومحافظة الصحة هم الكلدان . وقد حملهم اهتمامهم بهذا الامر الى وضع مرضاهم على معابر الطرق حتى اذا مر بهم احد أصيب بما هم مصابون به ينبئهم بصورة شفائه ، فيكتبون ذلك على ألواح يعلقونها على هياكلهم فكانوا بالنسبة الى الطب كالمختصين بالنسبة الى الطفل كفله رضيعاً ، فلم يابث عندهم حتى اختطفه من بين ايديهم اليونان فأكرموا مثواه وأحسنوا حضائه . فتنباه أبقرات وكنله سقراط وهذبه جالينوس ، فنيا صحيح الجسم قوي البنية ، تكاملت

بالتشريح أعضاؤه ، وتهذبت بفلسفة الحياة أخلاقه ، وصنعت بمجرب علم الامراض
صحيحة ، وأصلحت بغير التداوي البسيط مفاصله . ففقدوا يافعاً يسحر الالباب بفطر
جماله ، وعلماً جليلاً تشد رجال الحكماء من عامة الاقطار الى آئنة لاقتباس جواهر
أحكامه . غير انه لم يطل العهد حتى أخفى الدهر على اليونان بكسكته ، وقضى على
مدنية الرومان بحجفله ، فأظلمت تلك الشمس بعد النور ، وتعكرت تلك المياه بعد
الصفاء ، وذلت تلك النفوس الأثيمة ، واستعبدت تلك القلوب الحرة . فأجذب
روض الطب بعد الخصب ، وكسدت سوقه بعد الرواج ، فشرد حقيراً يتطلب ملجأ
بالتجنيء اليه وأباً باراً يعطف عليه . فقدفت به المحن طوراً الى بينظية وآخر الى
رومية وحينئذ الى الاسكندرية واخيراً الى جنديسابور . وكانت حاله في كل من تلك
العواصم بين صعود وهبوط ، وإقبال وإدبار ، وخصب وجذب ، الى ان عمت الفوضى
وعظم الخلاف ، فاشتغل عنه الناس بالفتن الدينية والاختلافات المذهبية فبات وليس
لديه ما يسد به رمقه ، وليس عليه ما يستربه جسده . تغيرت ملاحظه وتشوهت
محاسنه ونقر منه طلابه ، وتوقفت عن النمو أعضاؤه . يافعاً حرمته مظالم الاضطهاد
ان يبلغ رشده وغصناً يافعاً منعمته عوامل الإهمال ان يؤثي أكله . وبينما هو بلفظ
رمقه الأخير ادركه العرب بترياقهم فانتعش بعد الاحتساق ، واستأنس بعد اليأس
ففتحوا له رجب صدورهم ، وأوردوه عذب المناهل من عقولهم ، ثم كسوه بماء ثروا عليه
من القلائد الهندية ، والتيجان الفارسية ، وحلوه بما ابتكرته عقولهم من نبات الافكار ،
وما ابتدعته من الاكتشافات والاختراعات ، فطاب له رغد العيش وصفاء الهواء ،
فشب فيما بينهم عربي المنطق فصيح اللسان ، لغتته لغتهم ، وكسوته لباسهم ، وزينه
حليهم ، فلبت شعري كيف لا يعترف لهم بالجميل وهو ابن احسانهم وهلا يكون
مديناً لهم بالحياة ، وهو ربيب سعيهم واجتهادهم وهلا نقر اوربا باجمعها بفضلهم ، وقد
زفوه اليها فتياً ينقاطر ماء الحياة من وجهه ، تهذبت بعشرته اخلاقها وناسل منه
طبها وجراحتها .

قال الدكتور غستاف لبون في حضارة العرب (ص ٦١٤) . مؤيداً ذلك : ليس
كما يقال بواسطة الصليبيين بل بواسطة الاندلس وصقلية وإيطاليا (ويعني بإيطاليا

مدرسة سالرنة التي كانت تدرس فيها المصنفات العربية (دخل العلم الى اوربا فأسس في سنة ١١٣٠ في طليطلة تحت ادارة رئيس الاساقفة ريموند مكتتب ترجمة نقل الى اللاتينية أشهر مؤلفي العرب وكان نجاح هذه التراجم عظيماً دخل بها الغرب في عالم جديد . وظل السعي متواصلاً في القرن الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر . ولم ينقل الى اللاتينية مؤلفو العرب كالرازي وابن القاسم وابن سينا وابن رشد وغيرهم بل نقل ايضاً المؤلفون اليونانيون كجالينوس وأبقراط وغيرهم الذين ترجم العرب مصنفاتهم الى لغتهم . وبفضل تلك التراجم حفظت الى زمننا مصنفات مؤلفين قدماء فقدت كتبهم الاصلية . الى ان قال : فالى العرب خاصة لا الى رهبان القرون الوسطى الذين كانوا يجهلون حتى وجود اللغة اليونانية يعود الفضل بمعرفة التاريخ القديم ، والعالم باجمعه مدين لهم بعرفان الجميل لانقاذهم هذا الكنز الثمين . وقد كتب (م لبري) « انحوا العرب من التاريخ فلما خرنهضة الآداب في اوربا قروناً متعددة » وقد أيد زميلنا الدكتور يوسف حريز هذه الحقيقة في كتابه الذي وضعه وأسماه حظ الطب العربي في نشوء الطب الفرنسي . فانه بعدما أظهر ما كانت عليه اوربا في القرن التاسع والعاشر للميلاد من الجهل والعمجية على خلاف الممالك العربية التي كانت ترفل في ذلك العهد بابهى حل الحضارة والمدنية الرفيعة قال : قدم في القرن العاشر للميلاد جريردي اورالبياك الى الاندلس فأخذ العلوم عن العرب ثم عاد فنشرها في اوربا ولاسباج في فرنسا بواسطة مدرسة ريمس وشارتر . وقدم الى ايطاليا في القرن الحادي عشر قسطنطين الافريقي وكان تلقن العلوم العربية في خراسان والشام ومصر والقيروان فنشر فيها العلوم العربية بواسطة مدرسة سالرنة . وقدم الى طليطلة في القرن الثاني عشر جراردي كرميونا فتعلم العربية فيها بقصد الترجمة فنقل الى اللاتينية ستة وسبعين مؤلفاً لأشهر علماء العرب فكانت الصلة بين العرب واوربا .

* * *

لا ننكر بان بعض الفروع الطبية كالتشريح وعلم الحياة والقبالة لم ننم عند العرب كبقية الفروع الاخرى وذلك لامتناعهم بدافع اعتقادات او عادات في ذلك الحين

من تشريح الموتى والظفر الى النساء . اما بقية الفروع الطبية كالامراض والجراحة والادوية والكيمياء والمفردات الطبية والصيدلة فقد كان لهم فيها المام خاص ونموغ زائد . فقد وصفوا كثيراً من الامراض التي كانت مجهولة كالخضبة والجذري . وبتدعوا كثيراً من العمليات الجراحية الخطيرة كقذح العين ونفتيت الحصى ، وقلاوا فن الادوية القديمة رأساً على عقب بما أدخلوه عليه من النظريات والمفردات الطبية الكثيرة والادوية المركبة ، واستعمال الماء البارد . واما الصيدلة فهي بنت ابتكارهم وفيها من الاسماء العربية التي لنطق بها حتى اليوم ما يشهد بعربيتها ابد الدهر . اما ما ينسبه الفريق المتحامل على العرب من انهم أدخلوا على الطب بعض الخرافات كاطلاسهم والرقية وغير ذلك فهذا مما لم يختص به العرب ، ومثل هذه الاعتقادات الوهمية كانت سائدة في كل عصر وقطر عند القدمين والمتأخرين حتى في أيامنا هذه ، وعند جميع الشعوب على درجات متفاوتة . على ان مثل هذه الاعمال الوهمية قد لا تخلو من فائدة في معالجة بعض الامراض العقلية ، وهذا ما ساعد على انتشارها والاعتقاد بها . اما ما يذكره الفن الحديث عليها فذلك ان الدجالين ممن لا معرفة لهم ولا ائمة في أخلاقهم انشأوا يستعملونها ويعملونها أحبولة للارتزاق يستخدمونها في غير ما وضعت له ، فيضرون بها كثيرين ولا ينفع منها بالعرض الا القليل النادر . هذه نظرة عامة في حياة الطب الاجمالية في أدواره المختلفة . اما الطب العربي بصورة خاصة فهو لا بد لنا للاطلاع على حاطة به من شذو حال الفكر الى أوائل القرون الوسطى انشاهد الطبيب العربي في عصر جاهليته ما بين اليمن والتهجاز يحكي شفاة الحديد بالبار لستر بها عضواً فاسداً (لاغاني ١٣ - ١٣٧) ويتلو العزائم الوهمية ليشفي بأسرارها مرضاً مستعصياً . ثم نوافقه الى دمشق ثم الى بغداد ومنها الى مصر والاندلس حيث نراه استاذاً في الطب يدير المستشفيات العظيمة ، ويجري العمليات الجراحية الكبرى ، يؤلف الكتب ويدون المشاهدات ، يقاطر اليه طلاب الحكمة من كل حدب وصوب .

* * *

كان شأن الطب عند العرب في عصر جاهليتهم شأنه عند جميع الامم في حال

بدأوتهم مقصوراً على تجارب بسيطة نافعة وصلت اليهم عن طريق التوارث ، وعلى اعتقادات وهمية انتقلت اليهم بعامل التواتر والتعارف ، وكان يقوم بمهام هذه المهنة الكهان والعرافون فيعالجون المرضى بالرقية والسحر والعزائم والنذور وغير ذلك . ويستعملون أحياناً بعض القعائير البسيطة والاشربة المركبة من العسل . وكان لهم الملم خاص باستعمال انكي بالنار في كثير من الامراض . واشتهر عندهم كثير من المتطهين الذين لم يصل اليها سوى اسمائهم لضعفها مذهب المثل ، كقهاث الحكيم وابن حذيم وغيرهما . اما في نهضتهم الاخيرة قبل الاسلام فقد اشتهر عندهم أطباء حقيقيون أفرزتهم أسانذة هذا الفن من الأعاجم المعاصرين لهم بالفضل والحذافة . منهم الخارث بن كدة الثقفي طبيب العرب في عصره . اصله من شريف من اهل الطائف رحل الى ارض فارس وتعلم الطب فيها ، وأجاد في هذه الصناعة وطب في أهل فارس وشهدوا له بالفضل وحصل له بذلك مال عظيم . ثم عاد الى الطائف وكان معاصراً للنجي صلى الله عليه وسلم وكان النجي يوصي باستيفائه .

واشتهر من بعده ولده النضر بن الخارث . وكان فيلسوفاً عالماً وطبيباً ماهراً ومنهم ابن ابي رومية التميمي وكان جراحاً مزاولاً لأعمال اليسد (طبقات الاطباء ج ١ من ١٠٩ - ١١٦) .

على ان الشريعة الاسلامية الغراء وفي صدرها القرآن جاءت ملائمة اذ ذاك بالتعاليم الصحية القوية الأساسية التي لا شأن لنا بسردها اذ ليس للعرب في استنباطها ناقة ولا جمل .

وما زال الطب عند العرب علماً سماعياً يتناقضونه بالافواه ، الى ان فتح عمرو بن العاص مدينة الاسكندرية وكان فيها للطب مدرسة تدرس فيها كتب جالينوس الاثنا عشر ومن أسانذتها عبد الملك بن ابجر واهرن القس ولهذا كدناش بالسريانية راعى القوانين نقله ماسرجو به البصري الى العربية في بدء القرن الثامن للميلاد وهو ثلاثون مقالة . وهذا اول كتاب طبي ترجم الى العربية وذلك ايام عمر بن عبد العزيز (طبقات الاطباء ١ - ١٠٩) .

هناك في الاسكندرية وقف العرب لأول مرة على أطلال المدينة اليونانية

القديمة فأعظموا أمرها ، وعثروا على البقية الباقية من علوم الأقدمين فتشوقوا لدرسها
 وأول من دعا العلماء الى ترجمة الكتب اليونانية الى العربية خالد بن يزيد الأموي
 حفيد معاوية الأكبر وكان ولعاً بعلم الكيمياء فاستقدم جماعة من الاسكندرية منهم
 مريبانوس الراهب فعلمه صناعة الكيمياء ثم تقام له اصطفاان القديم (الفهرست ٢٤٤)
 وهذا أول من نقل في الاسلام من لغة الى لغة ، وبالنظر لادمج جل الأطباء
 الأقدمين الطب بالكيمياء نقل بهذه المناسبة كثير من معلوماتهم الطبية الى العربية .

وأول من اشتهر من العرب بعلوم الطبعية وضرب فيها بسهم وافر ولا سيما في
 الكيمياء جابر بن حيان بن عبد الله الكوفي المعروف بالصوفي من رجال القرن الثاني
 للهجرة وقد اختلف الناس في امره فقال جماعة من المتأخرين انه اخذ الكيمياء عن
 جعفر الصادق رضي الله عنه وفي ذلك خطأ كبير لانه لم يعثر في كتب التراجم المعتمدة
 كالفهرست وطبقات الاطباء وكشف الظنون وغيرها من امهات الكتب الموثوق بها
 على ما يدل على ان جعفر الصادق كان عالماً بالكيمياء او انه اشغف بهذه الصناعة بل
 جل ما ذكره ابن الزديم في هذا الصدد ان الشيعة قالت ان جابراً من كبارهم وزعموا
 انه كان صاحب جعفر الصادق كما زعم غيرهم انه كان من جملة البرامكة ومنقطعاً
 اليهم ومثقف بجعفر بن يحيى البرمكي وان من زعم هذا قال انه عني بسيد جعفر هو
 البرمكي وقالت الشيعة انما عني جعفر الصادق (الفهرست ص ٣٥١) ومن كلا القولين
 لا يفهم ان جابراً درس الكيمياء على احد الجعفرين او ان احدهما كان ملماً بهذا الفن
 وقد يقرب من الصواب ما جاء في كشف الظنون (ص ٣٤٤) ان جابراً اخذ
 الكيمياء عن خالد بن يزيد الأموي الذي سبق ذكره وقد وضع أسس هذا الفن
 وقطع فيه شوطاً بعيداً حتى أطلق اسمه عليه . ولقبه الفرنج بإضع الكيمياء ، وله فيها
 اكتشافات خطيرة ومؤلفات جلية يربو عددها على السبعين . فقد اكتشف النقطير
 والتصعيد وروح الخمر والحوامض القوية وطرق إذابة الذهب وترشيح السوائل
 وغير ذلك من الاعمال والمركبات الكيماوية الاساسية ، واخترع آلات وأجهزة
 كيماوية كثيرة .

هذا ولم يكن للعرب في عهد الدولة الأموية من نبوغ في الطب اذ جل من اشتهر اذ ذاك من الأطباء لم يكونوا عربياً . وأشهر هؤلاء في ذلك الحين شمعون وثيادوق اللذان برعا بحفظ الصحة . وابو الحكم وابنه الحكم الدمشقي وعيسى بن الحكم الذين اشتهروا بالطب وابن اثال طبيب معاوية وكان خبيراً بالأدوية السامة القاتلة وكان معاوية يقر به لذلك (طبقات لأطباء : ١ : ١١٧) .

على ان النبوغ العربي لم يقتبس من الاسكندرية ولما يشمل في عهد الدولة الاموية ، اذ الفضل بحمل العلوم الدخيلة للعرب ونقلها الى لغتهم يعود جلّه للعجم علماء جنديسابور ، والفخر العظيم كل الفخر بحجاب اولئك العلماء وتربيتهم ونقل علوم الاقدمين الى اللغة العربية وتهيته الافكار لاقتباسها واستبصارها ونشرها الحضارة العربية في جميع الأقطار يرجع للخلفاء العباسيين الكرام .

وقبل البحث في النهضة العربية لابدك من الاشارة الى الاسباب التي دعت الى انتقال العلوم القديمة من الغرب الى المشرق وجلها ناشئة عن الحروب الدينية والاختلافات المذهبية . فقد تلبدت في سماء الاسكندرية في اوائل القرن الثامن للميلاد ظلمات الاصل والاختلافات المذهبية فغوب منزل مدرستها الطبية القديمة فقلها عمر بن عبد العزيز عام ٧٢١ الى الطاكية ومنها الى حران . واشتملت نيران الفتن المذهبية في القرن السادس في آنية فجر منها الاملاطونيون الذين طردهم يوستينيانوس قيصر الروم فارين من وجه الظلم والاضطهاد ووجهتهم المشرق ملجأ الخائفين ومأمن العلماء المضطهدين في ذلك الحين ، فأكرم كسرى انوشروان العادل وفادتهم فتوطنوا فارس ونقلوا له كتب الفلسفة والطب الى الفارسية (الفهرست ٢٤٢) وتداعت أركان مدرسة الرضا فترطوا الى العجم يحملون معهم زبدة علوم اليونان وخيرة كتب الاقدمين . وعلى الجملة انسدل ليل الجهل في اوائل القرن الثامن في اوربا فغربت شمس العلم منها منتقلة الى آسيا فلما تفتحت خراسان عند النسطور بين ثم سطعت في بغداد مشوي الحضارة العربية حيث تكثفت جميع أنوار العلم ومنها انتشرت على العالم أجمع .

وأول المدن الشرقية التي فتحت أبوابها للعلوم اليونان الأقدمين ومعارفهم مدينة جنديسابور في خراسان ، وكان فيها في أوائل القرن الثامن مدرسة طب حافلة وبيارستان لمداواة المرضى أنشأه كسرى انوشروان لا يقبل فيه الاطباء الا بعد الاختبار . وقد اشتهر بحسن الطب فيها أسرات كثيرة منهم آل بُخُنِشوع وآل ماسويه وآل الطيفوري وآل ماسرجويه كان لهم سيغ نقل الطب للعرب أياد بهضاء وماثر حميدة .

وكان السبب في هجرة هؤلاء الأطباء الى دار السلام ان الخليفة المنصور بعدما بنى مدينة بغداد عام (٧٦٢) اعتراه مرض أفسد معدته وقطع شهوته ، وكان كما عالجها الأطباء ازداد مرضه فلقد علم الى الربيع بان يجمع الأطباء لمشاورتهم فجمعهم فقال له المنصور : هل تعرفون من الاطباء في سائر المدن طبيباً ماهراً ؟ فقالوا ليس في وقتنا هذا احد يشبه جرجيس رأس أطباء جنديسابور فأفاد المنصور في الوقت من يحضره . وكان جرجيس هذا مديراً لدار الطب ورئساً للبيارستان فخرج من جنديسابور بعد ان أوصى ابنه بختيشوع بالمستشفى وأدوره واستحب معه اثنين من تلاميذه ابراهيم وعيسى بن شهلا وقدم الى بغداد فعالج المنصور بتدبير حسن رجع به الى مزاجه الاول فقر به الخليفة وأكرم مشواه وأفاض عليه من وابل كرمه ما أغناه (طبقات الأطباء ١ : ٤٤٨) .

ومن ذلك الحين شرع ان تانده الطب في جنديسابور بنقاطرون الواحد تلو الآخر الى دار السلام التي لم تلبث ان ورثت علوم تلك المدينة ازاهرة وجل علمائها فأصبحت عاصمة العلم الوحيدة في العالم . من ذلك العهد اخذ يتقاطر الى بغداد حملة العلم والمترجمون من جميع أنحاء العراق والشام وفارس وفيهم النساطرة واليعاقبة والصائبة والمجوس والروم والبراهمة والعرب متأخين متعاضدين يترجمون من اللغات كافة . من ذلك الدور بدأت تشيد في بغداد المستشفيات العامة والجامع العلمية ودور الحكمة والصيدليات وقاعات الترجمة ومجالس الأدب والمناسظرة مما يدعوه التاريخ النهضة العباسية او القرن الذهبي العربي .

لا يسعني ان اذكر النهضة العباسية الا واذكر بجانبها أسماء أولئك الأساتذة الكرام الذين نقلوا اللامعة العربية جل علوم الأقدمين بتدر يسهم وتأليفهم وترجمتهم .
 واول من يجدر ذكره آل بختيشوع واولهم جرجيس الشهير طبيب المنصور الذي تقدم ذكره ثم خلفه ابنه بختيشوع بن جرجيس استقدمه الرشيد من جنديسابور وولاه رئاسة الأطباء وكان له ولد يدعى جبريل على جانب عظيم من الفضل والذكاء عهد به والده الى جعفر البرمكي فصادف ان اعترى هرون الرشيد احقاق صدره فشفاه منه بالفصد وشفى احدي جواريه من فلج صرعي بحيلة جميلة . فأعجب به هرون الرشيد وولاه رئاسة الأطباء وغمره باحسانه وظل جبريل بعد وفاة الرشيد موضع ثقة الأميين والمأمون ونال من الاكرام ما لا يسعه الوصف وجمع ثروة لا تقبل عن تسعين مليون درهم في حياته مما ينطق بعظيم احترام الخلفاء للأطباء وتعظيمهم للعلم في اي اناء ظهير (طبقات الاطباء ج ١ من ١٣٢ - ١٣٧) . وخلف جبريل هذا ابنه بختيشوع بن جبريل وكان طبيب المتوكل وقد بلغ من رفعة الجاه وكثرة المال ما لم يبلغه احد في عصره .

وبجانب آل بختيشوع بنلاً في سماء تلك النهضة آل ماسويه وكان ماسويه صيدلياً في مستشفى جنديسابور ، وقدم بغداد للارتزاق فتوفق لشفاء الرشيد من مرض أصابه في عينيه فحظي عنده . ولده يوحنا بن ماسويه فقد كان طبيباً ذكياً فاضلاً قلده الرشيد ترجمة الكتب القديمة التي وجدها في انقرة وعمورية وسائر بلاد الروم اثناء الفتح وقلده إمارة ديوان الترجمة (طبقات الاطباء ١ : ١٧٥) .
 ومن يجدر بالذكر ايضاً آل ماسرجويه وهو الذي ألف كتاباً في الطب وسابور بن سهل وكان فاضلاً عالماً وله تصانيف مشهورة منها كتاب الاقرباذين الكبير الذي عمل به في البيمارستانات ودكاكين الصيدانية مدة طويلة .

وتذكر ايضاً تلك النهضة بالجميل آل الطيغوري عبد الله وزكريا واسرائيل وآل ثابت وطبيب هرون الرشيد الهندي صالح بن بهيلة وكثيراً غيرهم ممن كانوا أساتذة في الطب القديم وجلهم مؤلفات مشهورة في السريانية نقلت الى العربية .
 على ان الخلفاء العباسيين أدركوا باديء بدء ان النهضة العلمية في الأمم لا تقوم

يجلب العلماء الأعاجم والكتب الغربية والنحصر العلم بفريق من الناس دين الآخر بل يقضي لها ان يتعرب اولئك العلماء وان تترجم تلك الكتب وان ينشر العلم ما بين طبقات الامة من أدناها الى أعلاها ولذلك كانوا يبدلون كل مرتخص وغال سيفه استجلاب العلماء ونقل الكتب للعربية ، ويرغبون النقلة بالبدل والإكرام والمحاسنة على اختلاف مللهم وأجناسهم ، ويحثون الناس على تعلمها واقتباسها بجميع الوسائل الخلاقية ويجهزون على تأليف الكتب بالأموال الطائلة حتى حدا بهم واعهم بنشر العلم الى بذلهم الاموال للطالعين فضلاً عن المؤلفين .

وادل من قام بهذا الأمر الخليفة المنصور فقد دعا جرجيس الى ان يترجم له بعض الكتب الطبية ففعل غير انها فقدت جميعها . ثم جاء الرشيد ومن بعده المأمون فوسعا نطاق هذا العمل ولم يذخرا جهداً في سبيل تقويته . ولم يكف العباسيون بنقل العلوم من السريانية فحسب بل طمحوا الى أخذها من مصادرها الأصلية فأرسلوا البعثات العلمية الى بلاد الروم وفارس والهند لاقتباس لغاتهم ومعارفهم وقد طلب الخليفة المأمون من قيصر الروم اذ ذلك ان يتحفه بكل الكتب القديمة المحفوظة في خزائنه لترجمتها فأجابته الى ذلك (الفهرست ٢٤٣) وأسس لهذا الغرض قاعات الترجمة وكان ينفق في سبيل نقل الكتب عن سعة حتى أعطوا وزن ما يترجم له ذهباً (ابو الفرج ٢٣٦) واقتدى بأموات كثير من اهل دولته من اصحاب الوجاهة والثروة في بغداد كآل شاكر الذين نفانوا في طلب العلم وإكرام العلماء وكانوا ينفقون خمسمائة دينار في الشهر للنقل والملازمة . ومنهم محمد بن عبد الملك الزيات الذي كان يقارب عطاؤه للنقلة والنساخ التي دينار في الشهر (طبقات الأطباء ١ : ١٨٧) وهذا خير دليل على ان العرب لم يجدوا العلوم القديمة ولا سيما الطب لقمة سائغة لناولوها عفواً بلا تعب ، بل جاهدوا في سبيل إحيائها باموالهم وأولادهم وأنفسهم ، مدفوعين بخالص الشوق للعلم المجرد عن كل تأثير خارجي ، جهاداً اشترك فيه الشريف والوضيع والتاجر والامير والعبد والسيد من أحقر أبناء السوق الى أجل سلطان وخليفة مما لم نسمع بمثله في تاريخ أمة من الامم .

وأشهر أولئك العلماء المترجمين حنين بن اسحق العبادي . ولد في الحيرة عام ١٩٤ للهجرة ثم ذهب الى فارس وتخرج في العربية بالخليل بن احمد ثم انتقل الى بغداد ومنها رحل الى يونان حيث تعلم اللغة اليونانية ثم عاد الى بغداد وقد نضجت معارفه فاجتدته تيار ذلك الممترك العلمي الهائل ، فلم يلبث ان نال قصب السبق في مضامره ، فترجم أبقراط وجالينوس واريسبيوس وابن أبيجر ، وفلذ رئاسة الترجمة فكان يتصفح الكتب المترجمة وينقحها وألف كتباً خاصة في الطب منها كتاب في العين (طبقات الاطباء ج ١ : ١٨٥ - ١٨٩) وبرع بجانبه في النقل ابنه اسحق ثم حفيده حبش .

واشتهر ايضاً بالعلم والحذافة بالترجمة يعقوب بن اسحق الكندي فيلسوف العرب وأحد أبناء ملوكها . نشأ وتادب في بغداد وكان عالماً بالطب والفلسفة والرياضيات والموسيقى وألف في كل هذه العلوم وأجاد ، وكان له وقوف تام على اليونانية فترجم من كتب الفلاسفة الكثير ، وأوضح منها المشكل : لخص المستصعب وبسط العويص ، وكان عظيم المنزلة عند المأمون والمعتصم وله مصنفات جليلة ورسائل كثيرة منها رسالة في علة الجذام وكتاب في الأدوية المستحبة وكتاب الافر باذين وغيرها من الكتب الطبية الدالة على خبرته وسعة اطلاعه . وقد نقل كتبه هذه الى اللاتينية جرارد دي كريمونا في القرن الثاني عشر الميلادي .

ثم برع الى جانبه بالترجمة قسطا بن لؤي البعلبكي وثابت بن قرة وابن البطريق وكثير غيرهم من العلماء الاطباء الأفاضل . فنقلوا بعد الجهد الى العربية كتب أبقراط وجالينوس واريسبيوس وديوسقوريدس وثاوفرسطس واسطاط والاسكندر الافروديسي وابن ابجر وغيرهم .

ولم يكتف العرب بنقل علوم اليونانيين بل دفعهم عامل الشوق للعلم الى نقل علوم الهندين والفرس وكان للهند مدنية رفيعة ومؤلفات جليلة في علم الطب خاصة بهم . فترجموا مؤلفات سيرك الهندي وسيسردي واستانكر وشاناق وغيرهم . ومن الذين نقلوا علوم الهندين منكم الهندي طبيب هرمن الرشيد وابن دهن الهندي طبيب المستشفى البرمكي .

و بالجملۃ فان العرب نقلوا الى لسانهم معظم ما كان معروفاً في الطب عند سائر الأمم المتمدنة القديمة ، فأخذوا من كل أمة أحسن ما عندها ثم مزجوا ذلك كله واستنقذوه ، ثم أضافوا اليه كثيراً من مشاهداتهم وابتكاراتهم ، واستخرجوا ما نسيه قريبنا : بالطب العربي .

ظلت بغداد مهد تلك النهضة العربية كعبة العلم ومحج العلماء ، الى ان ولي الخلافة جعفر المتوكل عام ٢٣٣ للهجرة فاضطهد أصحاب العلوم الدخيلة وأساء الى الاطباء ، واستفحل امر الترك وعظمت أذيتهم للعرب (المسعودي ٢ : ٢٦٩) ففرت قلوب دعاة العلم الحرة وشتخت نفوس طلاب الاصلاح الأبية من ان تألف الضيم ولنغضي على القذى ، فنفرقوا رو بدأ رو بدأ من بغداد الى انحاء المملكة الاسلامية الى حيث يسود العدل وتورف ظلال الحرية ، يعملون معهم بذور العلم الصحيح فيغرسوها في تلك الصدور الرحبة الخصبة ، ويحراثوها بمحراث تلك العقول الكبيرة ويسقوها من موارد تلك الافكار السامية ، فنبئت عربية تحسدها أبكار اليونان ، قوية الاغصان بدبعة الزهور ذكية الاثمار ، يتضوع أريج نجاتها في عامة انحاء المملكة العربية ، تلك المملكة التي سنشاهدها الآن في الصف الاول في المعترك العلمي وفي مقدمتها الرازي وابن سينا وابن عباس وابو القاسم وابن رشد وابناء زهر وابن الجزار والغاربي والصوري وابن التليذ والنبطي وابن البيطار يحملون صايح العلم الصحيح ، يمزقون بانوارها ظلمات الجهل والأضاليل متجهين بها من خراسان والعراق ومصر والشام والقيروان والاندلس ، عن طريق صقلية الى سالرنة ، وعن طريق طليطلة الى مونبيلية ، حيث تكاثفت تلك الانوار ومنها عمت اوربا باجمعها .

واول اولئك الرجال العظام الذي يجدر بنا ان ننتهه بالحرب الكبير ابو بكر محمد ابن زكريا المشهور بالرازي . جالينوس العرب . ولد ونشأ في الري في منتصف القرن العاشر ليلاد وأولع لاول امره بالموسيقى ونبع فيها ثم بالفلسفة والادب . اما صناعة الطب فقد تعلمها وقد اربت سنه على الثلاثين . وذلك ان حبه للسياحة ربح به الى بغداد وكان فيها علي بن ربن الطبري المشهور وكان متميزاً في الطب فدرس عليه

هذه الصناعة ويرع فيها حتى فاق جميع اطباء عصره . وعهد اليه برئاسة البيمارستان
العضدي المشهور وكان يطب فيه اربعة وعشرون طبيباً منهم الطبائعيون والجراحون
والكحالون والمجبرون كل يداوي حسب اختصاصه . غير انه لم يلبث في بغداد حتى
عاد الى بلده الري وتولى تدبير مستشفاهها مدة طويلة . وكان الرازي ذكياً فطناً
رؤوفاً بالمرضى ، مجتهداً في علاجهم وفي برئهم بكل وجه بقدر عليه ، مواظباً النظر
في غوامض صناعة الطب والكشف عن مكنوناتها وحقائقها ، وكان له المنزلة الرفيعة
في الري وطار ذكره في البلاد وكثر طلابه من كل صوب وأربت مؤلفاته على
الملائين . وكان يجلس في مجلسه ودونه التلاميذ ودونهم تلاميذهم ودونهم تلاميذ
آخر ، فيجني الرجل فيصف ما يجد لأول من يلقاه فان كان عندهم علم والا نعدام
الى غيرهم فان أصابوا والا تكلم الرازي في ذلك (طبقات الاطباء ١ : ٣١٠) .
وأصيب الرازي في آخر ايامه بالزرقاء وامتنع عن عملية القروح وكان عرض عليه
بعض المتطبيين ان يقدح فسأله الرازي كم طبقات العين ؟ فلم يجبه . فقال له
لا يقدح عيني من يجمل طبقات العين . وقد توفي الرازي عن عمر يناهز الثمانين
سنة عام ٣٢٠ للهجرة .

ومن أشهر مؤلفات الرازي في الطب كتاب الطب الموكي في العلل وكتاب
علاج الامراض كلها بالأغذية ودس الأدوية بالأغذية حيث لا بد منها وما لا
يكفه العليل ، وهو كتاب بدیع في بابہ . وكتاب المنصوري ألفه للإمير المنصور بن
اسحق بن اسماعيل بن احمد صاحب خراسان وتحرى فيه الاختصار والايجاز مع جمعه
لجمل وجوامع ونكت وعيون من صناعة الطب علمها وعمليها ، وهو عشر مقالات درس
في الاولى منها الطب الأخلاقي فعدد الصفات الكريمة التي يجب ان يتحل بها الطبيب
ثم حمل حملات عنيفة على الدجالين والمتطبيين الأثمن لما ينجم عنهم من الأضرار
ومن كلامه في ذلك : الاطباء الأثميون والمقلدون والذين لا تجربة لهم ومن قلت
عنايته وكثرت شہواته قتالون . وقد نقل المنصوري الى اللاتينية جرار دي كريونا
ودرس في باريز زمناً طويلاً ومنه نسخة في دار الكتب العربية في دمشق .
ومن كتب الرازي المشهورة الجامع ويسمى حاصر صناعة الطب وفيه جمع ما وقع

اليه وأدركه من كتاب طب قديم أو محدث . وكتاب الجدري والحصبة وهو مفرد في بابه له من الشأف في العالم الطبي درجة رفيعة . فالرازي اول من وصف هذه الامراض واول من فرق الحصبة عن الجدري وكان سلفه يدمجونها معاً . ووصفه هذين المرضين مستوفٍ من كل الوجوه شامل لأنواعها غير الطبيعية وهو يداويهما بصورة حسنة ومما يسجل له بقلم الفخر انه اول من قال باستعمال الماء البارد في الحصبة الخلطية والاختناق الصدري وهذا من خيرة ما يتوسل به الطب الحديث في معالجة مثل هذه الادواء . وقد لفت الرازي النظر في الانذار في الجدري الى نقاط مهمة لا أرى في بيانها احسن من ان اقرأ على مسامعكم كلام الاستاذ بوشوت في تاريخ الطب والمذاهب الطبية (ص ٣٤٧) وهاكم تعريبه عن كتاب الجدري للرازي : « هنا يتجلى الطبيب المحرب باكمل مظهره اذ لا يوجد في مشاهداته ما يدعو للانفاد (فقد قال الرازي في الانذار في الجدري) يوجد نوع من البثور البيضاء الكبيرة الحجم تكون في الغالب قتالة وهي البثور المنفشة التي تمتد بصورة يتصل بعضها ببعض وتشغل مساحة كبيرة او التي تؤلف دوائر متسعة ولونها لون الدهن . قال بوشوت ولم أراصح من هذه البيئة فاني ما شاهدت بثور مجدور انبسطت وتلونت بلون الدهن او الجص الا وكان الموت نتيجتها » . وقال بوشوت ايضاً (ص ٣٤٠) الف الرازي كتاباً في امراض الاطفال وهو اول كتاب في هذا الموضوع ظهر في التاريخ وكتاباً في دودة المدينة وفي الانتفاخ العظمي السلامي الذي لم يصفه احد قبله . وللرازي رسالة في الحصا في الكلي والمثانة منها نسخة في دار الكتب العربية الظاهرية في دمشق رقم (١٠٣) وهي من خبرة ما كتب في هذا الموضوع . عدد فيها الرازي الاسباب التي تنولد منها هذه العلة . ثم بحث في طرق الوقاية منها وكيفية مداواتها مما لا يختلف عما يأتيه الطب الحديث في هذا المرض .

وأجل كتب الرازي وأعظمها : (الحاوي) جمع فيه كل ما وجده مئزراً في ذكر الامراض ومداواتها من جماع الكتب الطبية للمقدمين ومن اتى بعدهم الى زمانه ونسب كل شيء نقله فيه الى قائله ونقصد تلك الأقوال بصورة لنطق بسعة اطلاعه وفوط ذكائه وعظيم تجربته . وقد درس فيه الرازي بالتتابع الامراض الموضعية ثم

الامراض العمومية ثم السموم والافرازات السامة ثم الادوية . والطب مدين له بمشاهدات كثيرة في الحميات الخبيثة وامراض الاطفال وامراض الجلد والقلصات الوجهية الاختلاجية الموجعة . وفيه بوصي كسلفه بالاكتفاء بعناية البول وينتقد بشدة فرط استعمال المسهلات القوية التي تخرش المعى . وفي كتابه الحاوي في بحث الحميات نظرية خطيرة لم يسبقه اليها احد وهي ان الحمى ليست مرضاً حقيقياً بل هي عرض ينشأ بمقاومة الجسم لدفع المرض الحقيقي .

اما من الوجهة الجراحية فالطب مدين للرازي بأول مساعدة في استئصال العظم السلامي وبمشاهدات في الفتق والدوالي الوريدية والأورام الباسورية والحصى والقيحة المائية وانقلاب الرحم والجيوب الوعائية . وينتقد على الرازي في الجراحة استعماله الآلات في تجبير الكسور وارجاع الخلع بدل اليدين . ويرى ان الرازي لم يهتم باديء بدء الجراحة التي كان يعانها اذ ذلك الدجالون وغيرهم غير انه عني بها اخيراً وأجرى بنفسه عمليات كثيرة ومع ذلك فهو لم يشتهر بالجراحة .

وينتقد كتاب الحاوي كونه مشوشاً مضطرباً والسبب في ذلك ان الأجل لم يفسح للرازي ان يحرر هذا الكتاب فتركه بصورة مسودات اخذها ابن العميد استناداً صاحب بن عباد من اخت الرازي بعد ان بذل لها دنائير كثيرة وجمع تلاميذه الاطباء الذين كانوا في الري فرتبوا الكتاب على صورته الحالية (طبقات الاطباء ج ١ : ٣١٤) .

وقد كان للحاوي رواج ومكانة عظيمة في عالم الطب في آسيا واوربا . فترجم الى اللاتينية عام ١٢٧٩ ميلادية والسبب في ذلك كما قلنا ان كريك في كتابه تاريخ الطب العربي (ص ٤٦٢) وهو ان الشهرة التي طارت لهذا الكتاب في آسيا والمغرب دعت الملك شارل ملك صقلية الى انحناف أمته بمثل هذا الكتاب النفيس فأوفد الى تونس بعثة علمية وطلب الحاوي من اميرها في ذلك الوقت وعهد الى فراجيوس اليهودي وكان يحسن اللاتينية والعربية فنقله له ومن ذلك الحين انتشر في جميع مدارس الطب الاربية . ولم تزل للحاوي منزلة رفيعة في هذا العصر وذلك لتمثله الطب العربي

ولما فيه من المشاهدات والنظريات ولما ذكر فيه من أسماء الأقدمين الذين لم يعثر على شيء من تراجمهم ولم يعرفوا ويحيوا إلا به .
والرازي أول من استعمل المواد المعدنية المركبة في المداواة كموريات الزئبق والبورق وآزوتية البوتاس وروح النشادر وملحه وغيرها وهو أول من فرق العصب الحنجري الأعلى من العصب الراجع وأول من ذكر ماء الحياة .
ويتضح مما تقدم أن الرازي لم يكن مقلداً كمن سبقه من الأطباء بل كان إماماً مجتهداً ، انتقد الأقدمين في كثير من آرائهم وأضاف على الطب القديم مشاهدات جمّة ومفردات كثيرة وتجارب عديدة (كما هو مبين في كتابه تجارب المارستان) ونظريات مبتكرة حققتها العصور التالية من بعده . وعلى الجملة فقد كان الرازي استاذاً في الطب وبطلاً من أعظم أبطال هذا العلم وعاملاً كبيراً في النهضة الطبية العالمية .

المركنور اسهر الحكيم

(للسلام صلة)



إعراس الخليفة المأمون

- ٣ -

« مدينة بغداد »

أمر ببنائها أبو جعفر المنصور ثاني الخلفاء العباسيين ، وأتم بناء قصره الكبير فيها في السنة ١٥٧ للهجرة ، وكانت لعهد ليلة العرس ، فسطاط العالم ، وأكبر مدينة على وجه الأرض ، وقد بلغت من العظمة والأبهة والسعادة ، ما لم تبلغه مدينة ، فشيدت بها القصور الفخيمة ، والصروح العظيمة ، والمصانع العديدة ، والجسور والقناطر والمدارس تحاكي القصور ، والمساجد الجليلة ودور الكتب ، والجنات والحدائق والبساتين ، والأسواق الكبيرة والوف الجماعات ، وأنشأ المأمون فيها مرصداً فلكياً ، وكانت دار الخلافة نفسها مرصعة بالمعادن النفيسة التي اجتلبت من أطراف الممالك ، وفيها من التجارة الكريمة والأمتعة الثمينة ، والرياش الفاخر والآنية البديعة ، وغير ذلك من نوادر التحف وغريب الماعون ، ما لم يجتمع مثله في مدينة من مدن العالم ، وكانت ضواحيها أهلة معمورة حتى الرقة ، وعلى جانبي بغداد كانت المدن الصغيرة كالجعفرية ، والهارونية ، والمهدية ، والمأمونية ، وفيها القصور للخلفاء ولوزرائهم وقوادهم وأكابر الناس ، والصروح والجواسق والجنان والبساتين والمزارع والقرى والمصانع ، مما يعجز القلم عن وصفه ، وبلغ عدد سكانها يومئذ في أقل إحصاء مليون نفس ، وورد لبعض المؤرخين أنها بلغت المليونين .

كل ذلك في مدة لم تتجاوز خمسين سنة من وضع أساسها ، وهو مما لم يحكه التاريخ عن مدينة سواها على وجه البسيطة ولا عجب في ذلك ، فإن أحوال هذه الأمة البدوية الفتية ، قد حيرت عقول الفلاسفة والمؤرخين والعلماء ، قال الفيلسوف غوستاف لوبون ما محصله : أن مدينة الأمة العربية لم يسبق لها مثال في تاريخ البشر ، وقد لا يكون لها مثيل إلى الأبد ، إذ إن هؤلاء البدو الذين حين فتحهم مالك فارس والروم ، حسبوا أنهن المرقق ورقاً عندما قدموه لهم ، وضنوا الكفور الذي وجدوه في خزائن كسرى ملتحاً فاستعملوه في عجبتهم ، هؤلاء البدو قد بلغت حضارتهم في

مدة قرنين ، ما لم تبلغه أمة من الأمم في قرون متطاولة ، فقد أنقنوا الصناعات ، وبرعوا في أصناف العلوم ، ونقلوها الى لسانهم ، وعلموها الامم الاوربية ، فأوربا مدينة لهم اليوم باكثر علومها ، وتألقوا في المأكول والمشروب ، والملبوس والمفروش ، وسائر أدوات الزينة وأسباب الترفه والنعيم ، وتركوا في الاندلس وغيرها من آثار حضارتهم ، ما يُدِيم لهم نغراً لا يبليه تقادم الزمان ، وتبدل الحدثان .

وقال أرنست رينان سيبدو به علماء المشرقيات ما نعر به باللغة العربية : خرجت اللغة السامية من ضيق الدائرة التي ظلت سجنينةً بها الى ذلك الحين ، ووصلت الى مقام شمل به تأثيرها أقطار الدنيا ، ولم يشهد البشر فتوحاً ، أوفر اتساعاً وأعظم سرعة من فتوحاتها .

فاللغة العربية هي بغير مدافع ، اللغة التي امتد فتوحها في أوسع بقعة من الارض ، ولا يوجد بين اللغات سوى لغتين تقاسمتها شرف الانتشار ، وأعدت ان لغتين عامتين ، وهما اليونانية واللاتينية ، أريد انهما لسان دعوة دينية ، او فكرة سياسية ، وكلاهما فوق اختلاف الاجناس ولكن امتداد الفتوحات اليونانية واللاتينية ، لا يقارب الفتوحات العربية ، لان المتكلمين باللاتينية كانوا من كامباني (مقاطعة من ايطاليا القديمة) حتى الجزائر البريطانية ، ومن الرين حتى جبال الأطلس (في شمال افريقيا) وكان المتكلمون باليونانية من صقليا (سيسيليا) حتى دجلة ، ومن البحر الاسود حتى الحبشة .

وأين هذه كلها في جنب مملكة اللغة العربية العظيمة ، وقد شملت اسبانيا وافريقيا حتى خط الاستواء ، وآسيا الجنوبية حتى جزيرة جاوة ، وروسيا حتى قازان .
وقال في موضع آخر من كتابه « التاريخ العام في اللغات السامية » : ان اوربا لم تُنج من تأثير اللغة العربية الشامل ، فالاسبانيول والبرتغاليون قد أخذوا الى لغتهم الفاظاً عديدة عربية في سائر الاشياء ، وحوّت جميع اللغات الرومانية — اللاتينية — عدداً كبيراً من الالفاظ العربية ، وجاها للتعبير عن الاشياء العلمية والصناعية ، وكانت أم اوربا في القرون المتوسطة دون الاسلام (العرب) بمراحل .

اولئك أقوامي لجنني بمثلهم اذا جمعنا يا جرير الجامع

واذ جرى بنا الحديث الى الكلام عن لغة المأمون ، وهي لغتكم الشريفة أيها
السادة : وكنا نظمنا منذ سنوات قريبة قصيدة في وصفها لحادثة معلومة في يومها ،
ودعوناها (البدوية) رأينا ان نفهمها في سلك محاضراتنا وان ظال عليكم الوصول
الى ليلة العرس :

« البدوية »

بالله يا نسيمات الزند والباب
وهل لمستثن من ذات الدلال رداً
فات فيكن ريحاً من ملايسها
وهل ثمن من ليلى ميايسها
اني أغار عليها من صواحبها
فات ليلى فتاة لا مثيل لها
الى البداة منسوب منابقتها
هيفاء لا قصر فيها ولا طول
غزالة تحمر الالباب نظرتها
تدنو لعاشقها تحفو لناكرها
تشبه الخضر يك الحسك بها
وكل ثوب عليها ثوب فائنة
وثوبها يقبل الازياء ما اختلفت
حروفها لمعان لا تطاولها
ألفاظها درر تركيها سور
غريزة الفضل لم يحدد محاسنها
لها الفصاحة تعزى اينا وجدت
وفي البلاغة هل خود تضارعها
وبعض خدامها عبد الحميد ومن
وغيرهم من ملوك الفضل آخرهم
من نجد جئت ام من روض غسان
ام حدثك من أقصى تسان
فطيب ليلى بانفاس وأردان
اني عليها غيور اي غيران
والحاسدات ومن انس ومن جان
صيفت من الحسن شكلاً ماله ثمان
وان نمت فهل نخر كمدنان
تجر أذيال إدلال وإلقان
والسك نكهتها لا ريج ريحان
ثيب عدلاً بتقويل وحرمان
وهل كذا بل جفن جفن سكران
ولم يشن حسننها تبديل ألوان
وليس يخافه تكرار أزمان
في حسننها بنت بونان ورومان
أبانها غرر في كل قرآن
الأجهول بايجاز وتبيان
شهودها مثل قس أو كحبان
وأصلها صاعد يسمو تقطاط
تلاه من اصفاني وجرجاني
رب الهى اليازجي الكوكب الشاني

وكم لجنتها في أرض لبنان
 والشعر محترقها من ذابزارعها
 بلابل الشعر غنتها بدائع
 وربة الشعر ناجتها مواهبها
 وقلدت جيدها عقداً ترفع عن
 فكل شعر الى أدنى منازلها
 وهل أمية صالت واستقام لها
 هل استعان على تشيت ما جمعت
 وهل سما عرش هارون الرشيد على
 والارض في ظلة للجهل حكمة
 الا وأعلام ليلى غير خافية
 وهل خليفة المأمون ردة لينا
 الا بأنفاظ ليلى غير ملتزم
 وربة الناصر العظمى بالتداس
 في كل فن بهم وإفترضت
 لم يتخذ بدلاً منها ولا سنداً
 وكم وكم دول من بعدها درجت
 للشعر للعلم ليلى للفصاحة قد
 وفي السياسة والتدبير كم خنقت
 وفي الصناعات لم تعثر لها قدم
 مجازها واشتقاق لا مثيل له
 ما ضرها انها والحسن عابدها
 من هاشم سيف معانيها ويستاني
 فيه وكم نمت من ندى حستان
 على عجائب أوزان وألحان
 فانحط عن عرشها عرش لكيوان
 عقود در وياقوت ومرجان
 أعلى مراتبه مستشفع دان
 ملك وطرف ليلي غير يقطار؟
 الا بالفاظها ذاك الخراساني
 ملك بناه على عدل وعمران
 وملكه مشرق من نور عرفان
 في كل مأثرة من غير برهان؟
 علم الأوائل من أقوام يونان
 في حين تعربها الفاضل أعوان
 قامت بمدحش عمران وبنيان
 ولفظ ليلى بأذان وأذهان
 لها سوى بعض تباع وغلان
 ضامت بليلاي في سر وإعلان
 جاءت بأبدع مروية لائسان
 لحسنها ربة من فوق تيجان
 وفي الحروب تخطت كل ميدان
 ونحتها معجزات كل بيتان
 لها حواسد من أهل وجيران
 انتهى ما يناسب الغرض منها .

« فتوح المأمون وغزواته وأخلاقه وعلموه وصفاته »

قامت في سبيل المأمون عقب إعلان خلافته غزبات شتى ، اذ انتشرت الفتن على أثر اختلافه مع أخيه المأمون وحروبهما ، وضع باخلافه غير واحد من بني العباس ، وافترق الناس فرقاً ، فرقة مع هذا وفرقة مع ذلك ، وكادت تضعضع اركان الملك ، فأظهر المأمون من الحزم والشجاعة والحلم وحسن التدبير ، ما كان فيه نسيج وحده ، اذ قمع الفتن ، ومهد الأمن ، وبسط العدل ، وغزا وفتح فتوحاً جليلة .

وكان المأمون أعظم بني العباس سؤددًا ومجداً ، وغزياً وسماحة ، وحلياً وشجاعة ، وعلمياً وفضلاً ، كثير العفو ، ومن آثار كلامه « لو عرف الناس حبي للعقول لقربوا اليّ بالجرثم » . وكان عارفاً باليونانية والعربية والهندية والفارسية ، عالماً كبيراً وشاعراً وخطيباً ومحدثاً ، متبحراً في الفلسفة والهيئة ، فصيحاً مجباً للعمزان والحضارة ، ولم يكن نظيره في كل من تقدمه من الخلفاء في حب العلوم والمعارف ، وكان لشغفه بالأدب والفضل عقد عهد صلح مع (تيوفيلوس) ملك الروم في القسطنطينية على ان يستنسخ له جميع المصنفات اليونانية ، ووجه بعثاً آخر يحمل اليه من جزيرة قبرص كل ما وجد هناك من الذخائر العلمية وكانت الجزيرة قد دخلت في حوزة دولته .

فأمر المترجمين كنعين بن اسحق وثابت بن قره ويعقوب الكندي وبوحنا البطارقي وغيرهم بتعريب ما لديهم من الكتب اليونانية والسريانية في الحكمة والطب والوسيقى والعلم الطبيعي والسياسة المدنية والنفس والحيوان والنبات والجبر والهندسة والهيئة ، وكان عنده جماعة كبيرة من النحّيين فجمع علماء عصره وأمرهم ان يضعوا آلات الرصد ليقيسوا بها الكواكب ويتعرفوا أحوالها ، كما صنع بطليموس ومن كان قبله ففعلوا ، وأمر ببناء المرصد في الشامية ببغداد ، ومرصداً آخر على جبل قاسيون في دمشق ، وسموه (الرصد المأموني) .

وسن أعماله الخلد في كتب العلم والتاريخ قياسه للدرجة من خط نصف النهار ، فانه أمر بني موسى محمداً وأخويه احمد والحسن بالوقوف على دور كرة الارض وكان الافدمون يرون ان كل درجة من درج الفلك يقابلها ستة وستون ميلاً من سطح

الأرض ، فلم يسحوا الأراضي المتسارية وحرروها وجدوا ان حصة الدرجة ستة وخمسون ميلاً فقط وهو المعتبر ليومنا هذا بفرق قليل جداً .

ثم انه عكف على جمع الكتب وجعل القيم على خزائن كتبه محمد بن موسى الخوارزمي ، وهو اذل من ألف في الجبر والمقابلة بالعربية ، ثم امر بإنشاء المدارس للعلوم المتعددة ، وكثرت الكتب في أيامه أيضاً ونفقت سوق العلوم ، وقامت دولة الحكمة في عصره كسائر الفنون والناس على دين ملوكهم .

وكان يجمع في قصره العلماء مرة في كل اسبوع ، وهو اذل يجمع علي عقده سلطان في قصره ، وكان يوزع جوائز وإنما على المؤلفين البارعين في يوم الثلاثاء من كل اسبوع ، ويحضر بذاته المحاكمات في ذلك اليوم حسب الفقه الحنفي .
« وزراؤه وقواده وعماله وشعراؤه وأطبائهم وعلماؤه »

كان في رأس وزرائه ذو الرئاستين الفضل بن سهل السرخسي وكان داهية عاقلاً عالماً بعيد النظر حسن التدبير وفيه يقول مسلم بن الوليد :

أُفْتُتْ خِلاَفَةً وَأَزَلْتُ أُخْرَى جَلِيلٌ مَا أَفْتُتْ وَمَا أَزَلْتُ

ومن عماله الحسن بن سهل وهو اخو الفضل وسيأتي ذكره ، ومن قواده ذواليمينين طاهر بن الحسين الخزاعي الشجاع الأديب ، وهو صاحب الكتاب المشهور في كتب التاريخ والأدب ، كتبه الى ابنه عبدالله عندما دلاه المأمون مصرأ ، ولما وقف عليه المأمون قال ما ألقى ابوالطيب (يعني طاهرأ) شيئاً من امر الدنيا والدين والتدبير والرأي والسياسة بإصلاح الملك والرعية ، الا وقد أحكم وأوصى به ، وامر المأمون فكتب به الى جميع العمال .

اما ابنه عبدالله هذا فكان أيضاً قائداً شجاعاً عاقلاً أديباً وتنسب اليه الالهيات المشهورة .

نحن قوم تليقنا الحمدق النجم - سل على انسا تليق الحديد

طوع ايدي الظباء نقنادة لعي - بن و نقناد بلطمان الاسود

وكان شعراء المأمون ابا العتامية وصريع الغواني وعلي بن الجهم والصولي والخلع ابن يامر وأضرابهم ، ومن أطبائه حنين بن اسحق العبدي وجرجس بن بختيشوع

ويعقوب الكندي وأبو بكر الرزي وجبرئيل وقسطا ابنا لوقا البعلبكي وأمثالهم ،
ومن متخبيه الفرضاني وابن نوبخت ومحمد بن موسى الخوارزمي وأخوانه وماشا الله
اليهودي وابن منصور والجوهري وأضرابهم ، ومن القهصص الاصمعي وأبو عبيدة ،
وأما العلماء والنخاة الذين كانوا يجلسون في حضرته فكثيرون نكتني بذكر الفراء
والكسائي واليزيدي وقطرب والجاحظ والأخفش وأضرابهم ، ومن قضائه يحيى بن
أكرم وأبو عبد الله الوقدي ، محمد بن أبي دؤاد ، ومن الفقهاء الإمام الشافعي والإمام
أحمد بن حنبل .

وان ما ذكرناه طرف من صفات المأمون وما كان يشتمل عليه بلاطه من الجهد
والمفاخر ، ولو قصدنا الى تصوير نفسه العالية الشريفة ، وتفصيل همه الصاعدة المنيعة
لاحتجنا من الوقت الى شهر ومن اللفظ الى معادن الدر .

كان المأمون أربعة أبيض جميلاً ، طويل الخيبة رفيقها قد وخطبها الشيب . فان
فاخرت الامم بقديها وهي الفاخر دون شك ، فهذا قديمكم أيها السادة .
شرف بطلح النجوم بروق له وعز بقافض الاجبالا
« الحسن بن سهل هو الخليفة »

كان كريماً عالي الهمة ولأه المأمون جميع البلاد التي افتتحتها طاهر من كور الجبال
والعراق وفارس والاهواز والصحار واليمن ، ومن نولى مثل هذا الملك الواسع في ذلك
العهد وكان حائراً ثقة المأمون ورضاه لا عجب اذا كان اغنى غني في تلك الدولة ،
وقد كانت الطريقة أقطاعاً كما تقدم البهان .

« بوران بنت الحسن عروس المأمون »

اسمها خديجة وبوران لقبها او هو اسم فارسي واشتهرت به ، ولدت لسنة ١٩٣ هـ
وعقد عليها المأمون في السنة الثمانية بعد المائتين ، وكانت عرسها في العاشرة بعد
المائتين ، ولم يذكر المؤرخون شيئاً عن جمالها وعقلها ، بل ردد كلهم عبارة واحدة ،
تلك ان المأمون تزوجها لمكان ايها منه وهذا ليس بالبرهان المقنع ، فقد كانت في
آل العباس من هم اعلى قدرأ في عيون الناس من الحسن بن سهل وأقرب راسماً من
المأمون ، ولو أزوجها المأمون واحداً من بني العباس المقربين منه لكفى الحسن بذلك

شرفاً ، فلا بد من ان يكون اختيار المأمون بوران لجمالها او لعقلها و علمها او لكيها معاً . وقد كانت العقد في الثانية بعد المائتين للهجرة كما تقدم وعمرها يومئذ عشر سنوات ولم يتم الزواج الا في العاشرة بعد المائتين ، وكانت بوران قد بلغت الثامنة عشرة وهذا مجال نظر الناقد ، فقد كانت العرب — وحر بلادهم معلوم ولا سيما بغداد — يتزوجون البنت في الثانية عشرة فما فوقها ويرون كل فتوتها وزهو صباها في الرابعة عشرة ولا سيما الملوك والامراء ، فما السبب في تأخير عرس المأمون ثماني سنين ؟ أكانت غزوات المأمون وكثرة الدين من الأسباب التي عاقته كل هذه المدة ام لسبب آخر ؟ لقد أغضب المؤرخون الاولون ذكر كثير من امثال هذه الاحداث الهامة وأسبابها ، بهد ان لها شأنًا عظيمًا في عين الناقد مستطلع عادات ذلك الزمن واخلاق اهل وسائر احوالهم ومدنيته ، وبات الفوز بذلك بعد تطاول القرون ولقلب الشؤون مما لا مطمع في الوصول اليه من الحصول عليه من مظاهره في كتب التاريخ ، فحببنا ان نشير الى ذلك هذه الإشارة حتى اذا اتفق لاحد الادباء العثرون عليه في تضاعيف القصاص او في كتاب من كتب الادب نبه عليه خدمة لعلم .

« ليلة العرس »

كان الحسن بن سهل مع اهل بيته في معسكره بفتح الصلح وهي بلدة كانت بين الكوفة والبصرة على نهر كبير يسمى الصلح تبعد ثماني مراحل عن بغداد ، فنهض المأمون اليها الثمان ليال من مضت رمضان في السنة العاشرة بعد المئتين بانقضاء العسكر والقواد والندماء والمغنون والشعراء والعلماء والقضاة والفقهاء وكبار العباسيين من اهل بيته ، وسار خلفه الحشم والخدم والاتباع وسائر بطانته على الخيول الرائعة والبراذين والبغال الفُرّه ، وكان يسبقهم الجمالون والمكارون والحامون والملاحون والفراشون في جمع لا يدرك الطرف آخره .

وكان الحسن بن سهل قد خرج لاستقبال اخيخته بعسكره وحشمه ، فلما وقع بعصره على موكب المأمون امر عسكره بالسير امام عسكره ، وترجل حتى اقبل على قديمي المأمون ويديه يقبلها ، فقابل الحليفة بأسه وبشائسته ثم امره بمواكبته فسار في بطانته ، ولما وصلوا الى الصلح خرجت المدينة باجمعها للاقاء المأمون وكانت يومًا

مشهوراً لم ير مثله الراؤون ، فنزل الخليفة عن حواده تكسفه العظمة والجلال وتبسم له
 تغور الاماني والاقبال ، وذلك الموكب العظيم يسير بين يديه وكانت قد ضربت له
 الخيام والسرادقات والقباب من منسوج الحرير والديباج الموشى ، فدخل قبة
 فرشت ارضها بالسط والزرابي الخضروانية وعلى طاقاتها الستور اليمانية وفي حضرة
 عظماء لدولة واكابرها والشعراء والندماء والمغنون والعازفون ، وقام الحسن بن سهل
 يخدم بين يديه ، ثم مدت امامه الموائد الفارسية ، وتقدمت الوان الطعام في الاواني
 الذهبية وانشد المثنون وتبارى المغنون ، ولما كانت الليلة الثالثة من وصوله زُفَّت
 اليه (بوران) فلما دخل قبتها كانت عندها (حمدونة) بنت هارون الرشيد أخته
 لأبيه و (زبيدة) امرأة هرون الرشيد ام اخيه الامين و (جدة بوران) ام ابيسا ،
 وكان قد أودع عندها شمة عنبر مرفوعة على شمند من الذهب ثقلها مئة من ،
 وذلك نحو خمسة عشرين رطلاً حديداً ، وفرشت ارض القبة بحصير منسوج بالذهب ،
 ولما اقتربت بوران من المأمون لتمنحه بقدومه نثرت جدتها عليها الف درة من أنفس
 ما يكون من كبار المألوؤ كانت في صينية من الذهب ، ولما رأى المأمون تساقط اللآلي
 على قدميه قال قائل الله ابانواس كأنه شاهد هذه الحال حين قال :

كَانَ صَعْرَى يَكْبُرَى مِنْ فَوَاقِعِهَا حَصْبَاءٌ دَرَّ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ

ثم امر بجمعها فجمعت فأعطاه بوران وقال لي ما ترغبين ، فلم أنطق بحرف ،
 فقالت لها جدتها (كل سيدي فقد أمرك) فقالت : اسأل سيدي الرضاء عن عمه
 الامير (ابراهيم بن المهدي) — وكانت ذنبه عظيماً — فقال قد فعلت ، فقالت :
 واسأل سيدي الاذن لسيدي ام جعفر في الحج — وهي زبيدة زوج هرون الرشيد —
 فقال أذنت ، ثم ألبسها البدلة الدونوية الأملوية المشهورة ، ولما لما غنم العرب من
 الروم في دمشق او مما وقع لهم من الفرس عند فتح المدين ، ثم استولى عليها العباسيون
 في جملة ما استولوا عليه من خزائن الأمويين اذ من المعلوم ان الدولة الأملوية لم تنصل
 الى ما بلغتته الدولة العباسية لذلك العهد ، من رفقة العيش في المأكول والمشروب والملبوس
 والمفروش والماعون وسائر عوائد الترف وأحوال الجسد والتعظيم ، فليس بالمعقول ان
 يتزيا العباسيون بزيتهم او ان يلبسوا ملابسهم وبين البيتين من البغضاء ما هو معروف .

وبينما كانت ايم الحسن بن سهل تشر الملائكة على المأمون وبوران ، كانت والد بوران ينثر على الهاشميين والبنو العباسيين وعظماء الدولة وسائر الطبقة الاولى بنادق مسك في كل بندقة رقعة باسم ضيعة او دار او مزبعة او جارية او فرس او غير ذلك ، فيفتح الرجل البندقة ويقرأ ما فيها ، ثم يمضي الى وكيل أو صد لئلا فيدفع اليه الرقعة والوكيل يسلمه ما في الرقعة سواء كان ضيعة او ملكا او جارية او غيرها ، ثم خرج الحسن من ذلك النادي وأقبل على الطبقة الثانية ، فبدأ يفرق بدر المنانير الى عشرة آلاف ، ثم انتقل الى الطبقة الثالثة فنثر عليهم الدراهم ونوافج المسك وبهض العنبر . وظل المأمون عند الحسن تسعة عشر يوماً كان يهدله فيها ولجميع من معه كل يوم من الأطعمة الملوكية والمشروب وسائر اسباب الأبهو والسرور ما يقصر عنه الوصف ، فلم يكن في العسكر ومن ضمهم من المكاريين والجمالين والملاحين من يحتاج الى شراء شيء لنفسه او لزوجاته ، وكان يبيع النفقة عليهم خمسين مليون درهم او خمسة ملايين ليرة فرنسوية ذهباً .

ثم نهض المأمون وسار ومن معه الى مدينة المأمونية وكان يمشي فامر النواتية بتجهيز الخرافات (السفن) لاجرة خواص الناس بدجلة من بغداد الى قصوره في المأمونية (مدينة المأمون) لحضور الولائم ، فكانت الخرافات المدة لذلك ثلاثين ألفاً تسير في دجلة ، وقد تأقوا في تزئيمها بالالوان وطلوعها بالذهب وفرشوها بالسط والسجادات وأناروها ليلاً بمختلف الالوان ، فكانت كالسحاب تشق قلب الماء وتظهر عن بعد في الظلام كأنها نجوم السماء ولا يسمع منها الا اصوات المغنين والمغنيات والعازفين والعازفات بين عود ومزمار وكسرات نادر .

وفي فمه ناي يدير سُلَافَةً هي السكر الا انه لا يحرم

« وفي فمها شباية تبعث الهوى ونحن سكوت والهوا يتكلم »

وكانت مدينة المأمون قد لبست من الزينة حلاً ما وراءها لمتطلع غابة ، وكان الخطب الممدد للوقيد بدار الطنج مائة واربعين يوماً مدة عام كامل ثلاث مرات في كل يوم وفي الخطب لليلتين فأوقدوا القصب بصنوع عليه الزيت . اما قصور المأمون فقد كانت تلك الليلة في حسن وأبهة يعجز القلم عن وصفها

وكان الراكب في دجلة يشرف عليها من بعد تسامع ولا سيما قبائها ، فمن مخصص
بالجص الأبيض الناصع كالفضة البارقة ومن مطلي زعفران السفي بالاخضر الناضر
والنصف العلوي بالذهب النضار وفوقها جامات الذهب نلامع كالشهب المقددة ،
ثم يندو للعيون جمال تلك الحدائق الممتدة الى أفاضي مدى البصر لتسرب فيها
جداول الماء من برك عظيمة الاتساع مختلفة الاوضاع ينصب فيها الماء كالفضة الدائبة
من افواه حيشان او سباع او نسور او ثيران ، من مرمر مختلف الالوان ، بالغ من
الصناعة نهاية الالتقان ، بين جنات قد ازدحمت غياضها واشتبهت اشجارها وتعت
أطيارها وتعانقت أغصانها وامتد ظلها ، يسير فيها الداخل تحت أفية وأطواق من
فسيفساء الوراق ، في مماش كأنما أرضها خمائل سندسية ، وعلى جانبها درازينات
لا يدرك الطرف منتهائها ، قد اعترش عليها الياسمين ، وتعلق بها الورد والنسرين ،
ونمت حولها الازاهر والرياحين ، وقامت وسطها القصور الباذخة والصروح الشائخة
والاربعة المرتفعة والجواسق الخفة ، ذرات الساحات المترامية ، والصحون الناصع
والافنية الرحاب ، والاندية العظيمة طيقانها أبواب وابوابها حيرة الالباب ، قد أُرخيت
عليها ستور الذهب والاصفر كأنها اخنعة الطواويس ، وفُرشت أرضها بأنواع
الفسيفساء تحاكي زاهر الجنان ومتعادي الحيوان ، من أسود ونمور وغرلان برخام
متعدد الالوان ، بخالطة خشب الصندل والعود الهندي ، وفي كل جهو بركة او برك
لتساب إليها المياه الصافية على ملون المرمر كالحجج الدائب ، والسمك على اختلاف
الاشكال والالوان تصعد في مائها وتخط وتعم كما يعوم فيها البط ، وقد رُفشت
حيطان تلك الابهاء بالقاشاني البديع ، يحاكي بألوانه ورسومه ازهار الربيع ، ورُفعت
سقوف تلك الاندية والابهاء الرحاب على اعمدة المرمر ذوات الالوان الباهرة ، وقد
أُحکم صنعها ونقشها وتكامل حسنهما بتذهيبها ورقشها ، وقامت قبائها على قناطر وحنايا
واضلاع ، بلغت بها صناعة الهندسة غاية الابداع ، ودارت فيها الطيقان كالفلاندني
اعناق الحسان ، وقد قعدت على اساطين وسوار ركزت على قواعد من الصوان ،
ونقمت باقداح كالزرجس من رخام ، وبلغت من الزهو والارتفاع ما لا سبيل معه
الى امتاع النظر بأعاليها الا بانقلاب رأس الناظر الى آخر المستطاع ، وقد طليت

تلك السقوف والقباب بألوان تخاص في محاسنها الابصار ، يأخذ إبداع رسومها بمجامع القلوب ، وألبست من الذهب الوهاج انواراً يرتد عنها الطرف كتيلاً .

وكانت لا تنفع العيون في تلك الاندية والابهاء والغرف والمقاصير الا على محاسن قد تسامت في الطرف ، وملاحه وإبداع بقصر عنهما كل وصف ، فمن حيطان من الزجاج رفعت وراء الشرفات تنعكس عنها الانوار الى داخل القباب ، ومن حيطان من جسيم الرخام حاكمت بجفورها ورسومها حيائك الغمام ، او اجفحة الطيور او غلائل الحسان او ظهور السمك والحيتان ، او صور الغزلان وغيرها من الحيوان ، بين مجتمعة ومفوتة ، ومسيرة ومنمّرة ، ومكفوف وملفوف ، الى أشكال واللوان يعجز وصفها ، وضيق عنها التفصيل والمعبّر ، واتمثيل والصوير ، وفي كل قصر قصور ، وفي كل ناد روضة ، وغدير وغرف ومقاصير ، وصحوف ومرسلة وستور متراخية وسرر مرفوعة واراتك مصنوعة وحمال منصوبة وبجائس مفرشة ومقاعد موضوعة وكرامي مصفوفة وطفافس مبسوطة ، وموائد قائمة واباريق مبلوثة وخواب مسنودة ونرجسيات منسوفة ، وأوان مختلفة الاشكال نادرة الحسن والمثال ، من الصيني والزجاج والذهب ونفائس المعدن وغرائب التحف وعجائب الطرف ، ومجامر العنبر ومباخر اللند وقنانيق ماء الورد الى ما لا يبلغه عد ، ولا يتقبله فكر شاعر .

تلك هي القصور التي قامت بها الافراح المأمونية والولائم العباسية ، ولما وطئت ارضها بوران اعطاها المأمون في مهرها الف حصاة من نفيس الياقوت .

وقد ظلت الولائم قائمة في تلك القصور اياماً متوالية ، وكل الذي وصفناه ان هو الا خيال ضئيل لحقيقة ذلك العرس الجليل ، فانه عرس لم يره له التاريخ مثيلاً ولا بدع فالأأمون فرد لم يزل انزمان بمنزلة بختيلا .

ولعلنا نأتي في محاضرة أخرى على ما كان للدولة الأموية الثانية في الغرب من الفتوحات الباهرة ، والاثار الخالدة الفاخرة ، والمدنية العظيمة الزاهرة ، مما تشرع له الصدور وتهتز النفوس ، وتعلو القيم وترتفع الرؤوس ، ويقال عنده لا عطر بعد عروس .

عضو المجمع العلمي العربي

قسطنطين الجمهي

مطبوعات حرثية

الدنيا في اميركا

« تأليف الاستاذ امير بقطر . طبع في المطبعة العصرية بمصر في نحو »

« ٢٠٠ صفحة بالقطع المتوسط »

ألف هذا الكتاب مؤلفه بعد أن أقام في اميركا مدة طويلة فتلقى العلم في اكبر جامعاتها (جامعة كولومبيا في نيويورك) وحاز درجة (M T) من اعلى شهاداتها . وهو لم يكتف بالوقوف على ظواهر المدنية الاميركية بل تبطن اسرارها . ونقص آثارها . وبلا أخبارها . فكان موضع ثقة في جميع ما حرره وكتب .

وكتابه هذا تارة يظهر من خلال سطوره انه مجموعة (مفكرات) علقها خشية النسيان وطوراً بينهم منه انه مجموعة (محاضرات) دونها بناء على رغبة الكثيرين من أصدقائه ولقد طالعه وأحب ان اعيد مطالعته لأكرماد وقوفاً على اسباب ونتائج تلك المدنية العبقريّة والعمران العجيب الذي قالت فيه ابنة لي بعد ان طالعت الكتاب : انها كانت تختل وهي تطالعها كأنها تقرأ في عجائب الف ليلة وليلة .

وقد أبدع المؤلف في وصف ما رآه وشاهده بنفسه كما انه احتاط وتوأنق في نقله ورواه عن غيره : فلتبع جزئيات المسائل وضم بعضها الى بعض بلباقة وحسن أسلوب يزيد القارئ نشاطاً وانبعاشاً في المطالعة : فوصف المؤلف (تمثال الحرية) المنصب في مدخل ميناء نيو يورك و (جزيرة أليس) حيث يجلس المهاجرون ليمصوا و يبتلوا . و (عجائب الصناعة والاختراعات) و (اللاسلكي) و (فورد) صاحب السيارات المشهورة و (مكاتب المطالعة) و (الصحافة) و (السوربون) في اميركا و (شلالات نياغرا) الخ الخ كل ذلك نقصى البحث فيه وأجاد إجادة جمعت بين الفسكاهة والفائدة . وكل هذا لا تذكر فائدته في جنب وصف المؤلف لمعاهد التربية والتعليم مما استوعب نحو نصف الكتاب . فهو في هذه المباحث يصف طرائق التربية وأساليبها العملية التي هي سر ارتقاء تلك البلاد وبلوغها هذا الحد العجيب من الحضارة والعمران . وقد تخلل هذه المباحث فوائد كثيرة عن تربية الاناث وتعليمهن منفردات

ومخاطبات بالذكور . وهذا البحث مما يجدر برجال التربية في بلادنا ان يدرسوه ويقاربوا وجوهه بروية وإمعان لان شرفنا على ابواب انقلاب عظيم من هذا القبيل .
وعبارة الكتاب سهلة قريبة النادل وهفواتها الكتابية قليلة لا تعيب الأسلوب ولا نشوة محاسنه . ومما لاحظناه من هذا القبيل قول المؤلف في المثل المشهور (يتعلمون الزبانة في رؤوس اليتامى) فلم نلفظ في اول الامر الى ما اراده بقوله (الزبانة) لان المشهور في المثل (يتعلمون الخلافة او الحجة في رؤوس اليتامى) لا (الزبانة) ثم انتهينا الى انه عني (الزبانة) المنصهر من جعلهم (المزين) اسماً للخلاق .
ولعل المصريين يستعملون كلمة (الزبانة) في المثل المذكور .
ومما امتاز به الكتاب رسومه المقتنة الصنع التي تمثل كثيراً من مظاهر مدنية اميركا ومخلف آثارها ومشاهدتها الخلافة .
وبالجملة فان الكتاب من خيرة ما اجتهدت (المطبعة العصرية) ان تصدره من كتب المطالعة ومن أجل كتب التربية والتعليم فالشكر لمؤلفه ولناشره .

المعربي

الرسائل النادرة

تحت هذا العنوان سيصدر من وقت الى آخر رسائل صغيرة مطبوعة عن أصولها المخطوطات القديمة المدفونة في كنوز مكاننا الاسلامية القديمة . والمشروع عظيم مفيد جداً . والذي تصدى له أبناء كتي قديم اعني السيد امين الخانجي . وقد نشرنا الى اليوم رسالتين أدبيتين : الرسالة الاولى (إعلام الكلام) لابن شرف القيرواني والرسالة الثانية (قراصة الذهب) لابن رشيق صاحب العمدة . وكل منهما لا أنجزت صفحاتها الخمسين والستين صفحة . وموضوع الاولى وصف طبقات الشعراء في الجاهلية والاسلام . ونقد بعض اشعارهم على لسان رجل اسمه (ابو الريان) فأسلوب الرسالة أسلوب مقامة كقامات البديع المحدثاني . اما موضوع الثانية فهو أخذ الشعراء واقتباس بعضهم من بعض وهل يُعاب اولاً يُعاب وانتميل لذلك بابيات من كلام

الشعراء المتقدمين والمتأخرين الى زمن المؤلف ابن رشيق . وقد افلحنا في نشر هذه الرسائل الرسالة الاولى بقولهم (وبعد هذه الباكورة الاولى من سلسلة الرسائل النادرة التي اعتزنا على إصدارها وإثبات الأوصياء من اهل الأدب العربي بها سالكين النهج الذي قصده الوالد منذ ستة وعشرين عاماً الخ . فهذه الرسائل تشبه مجلة تصدر من وقت الى آخر تلخص أنفس أعلام العلم الاسلامي والأدب العربي وكلما اجتمع من هذه الرسائل طائفة ضم بعضها الى بعض بالتجليد على شكل كتاب تزين به المكتبات وتعمطر بموضوعاته المجالس . والقائلون بهذا المشروع العلمي العظيم أمل له وأحق به من سواهم وقد أعدوا له عدته من المهمة والنشاط واختيار أقرب الطرق الموصلة اليه . ذلك أنهم وشقوا علائقهم مع اكبر رجال العلم وأصحاب المكتبات في مصر كالاساتذة احمد تيمور باشا واحمد زكي باشا ونور الدين بك مصطفى واحمد طلعت بك نجيب طلعت باشا المشهور هؤلاء الرجال هم أصحاب المكتبات الكبرى المأهولة بأنفس الآثار العلمية الاسلامية وأقدمها . فاذا بقي هؤلاء الشبان الافاضل مثابرين على نبش هذه الكنوز واستخراج دفائنهم فيوشك ان يخدموا المكتبة الاسلامية خدمة جلى . ويطوفوها من عقود الآثار بالأنفس الأعلى . ولكن هناك امر لا نرى بداً من مصارحتهم به : ذلك أنهم ان كانوا أعدوا لهذا العمل عدته من جهة كما ذكرنا آنفاً . فانهم قد قصروا أو أخلوا بالعمل من جهة أخرى : فان أمارات قصد الربح والتجارة بادية على الرسالتين اللتين نشرتهما وكان شأنهم فيها شأن الذين يطبعون الروايات وكتب القصص فتتهافت عليها العامة والاولاد للتسلية وتزجية الوقت . فيكون الورق من جنس الدون والطبع كذلك . فلا يلبث القاري ان يقرأ الكتاب التجاري حتى يذله الآخر وهكذا . فيتمزق الكتاب ويضمحل أثره . ولا كذلك يجب ان يكون شأن هذه الرسائل النادرة التي انما بقائهم الخاصة لا العامة . ورجال العلم والفضل لا اهل الغفلة والجهل .

وقد رأينا من سخرية ورق هذه الرسائل وتجهة وقلة العناية بالتمحيص والضبط ما تشاءم بمستقبل هذا المشروع لان العامة سيهدون في هذه الرسائل لكونها ليست على شرطهم . والخاصة يهدون فيها لعدم كمال الفائدة منها . ولنضرب لذلك مثالين

يسئين منها عدم العناية بتصحيح الرسائل . (الاول) ان ناشري الرسائل فمروا بكلمة (الكهـام) (ص ٢١ من رسالة إعلام الكلام) بقولهم (الكهـام سيف فلـ شبانه فامنع من القطع لامة) كذا ولم تفهم معنى لهذا القول والأفصح والأوجز ان يقال (الكهـام السيف الكليل) . والمثال الثاني من رسالة (قراضة الذهب ص ٣٥) قوله : (حشى الفحول من الكهـاء بصيغه ما يلبسون من الحديد معصرا)

لا معنى لكلمة (حشى) وهي معرفة والبيت للمثنوي ولم يطبع ديوان لشاعر كما طبع ديوانه وتعددت نسخه وشروحه فكان يمكن للمصحح ان يراجع القصيدة التي منها هذا البيت فيجده هكذا :

خَشَى الفحول الخ وحشى فعل ماض كساق ومعناه انه جعل الفحول كالخناثي من حيث انهم يلبسون الحديد فهم رجال أبطال لكن الحديد معصفر بلون الدم فكانوا كاللائث اللواقي يلبسون المورس والمعصفر من اللباس .

هذا وان امر هذه الرسائل بخطر في فائدته ونفعه ولذلك قدمنا هذه النصيحة للأفاضل القارئين بنشرها . ولا نطلبهم الا عالمين باؤشارتنا كما يقبلون شكرنا لهم وإعجابنا بهم .

كتاب النعائم والنعمة

« تأليف الدكتور محمد عبدالحمد بك طابع في المطبعة العصرية بمصر في »

« نحو ١٦٠ صفحة بالقلم الصغير »

هذا الكتاب مما أصدرته المطبعة العصرية لصاحبها الفاضل (الياس انطون الياس) ومؤلفه من أشهر أطباء مصر المنشطيين (اي الاختصاصيين) في موضوع هذا الكتاب أعني (مسائل التعليم من حيث ارتباطها بصحة النلازمة) وهو اليوم مدير مستشفى الملك بمصر وكبير جراحيه . ومن آثاره المطبوعة في فقه الذي ننطس فيه (الدروس الصحية) و (التمرريض المنزلي) و (طب البيت) و (تربية الطفل) وغير ذلك . وقد تناول في هذا الكتاب الذي تترطه جميع المباحث الصحية التي تتعلق بالتلميذ من

حيث بهم أمرها آباءه وأسائذته الذين يراقبونه عن كتب وهو يجتهد في الدرس والتحصيل فلا يسوقه اجتهاده هذا الى الاخلال بصحته فينقطع عن العلم بساناً .
ومما نناوله البحث في هذا الكتاب (نتائج الامتحانات وسبب رسوب الطلاب فيها)
(التعليم الإلزامي) و (ضرورة تعاون الآباء والمعلمين في التعليم) و (بعض امراض
الطفولة وعلاقتها بالتعليم) الخ . فالكتاب كما يرى القاري يحتاج اليه كل تلميذ وكل
ولي تلميذ وكل معلم تلميذ . فالشكر لمؤلفه الفاضل على ما تحف به قومه وموطنه . له

•••••

حول سرير الامبراطور

اسم لكتيب لطيف الحجم يتضمن وصف حياة الامبراطور نابوليون بوناپارت
من الوجهة الصحية : اي من حيث مزاجه والامراض التي كانت لتسببه وقد ورث
بعضها من ابويه وأسرته . وكيف كانت تأثير ذلك المزاج او تلك الامراض في
أعماله وحره به بل وانخزاله وفشله . فالكتاب مفيد لكل احد لاسيما للأطباء . وقد
أشار (اوغست كوت) الى هذا بقوله (الأموات يدبرون الاحياء) اي ان الاحياء
يستفيدون علماً وتجربة كلما أمعنوا بحثاً في الاسباب التي أدت الى موتهم . والكتاب
بلغ (١٢٨) صفحة وقد ألفه الدكتور (كاباتيس) ونقله الى العربية بتصريف الدكتور
(نقولا فياض) المشهور بجمعه بين البراعة في الأدب والمهارة في الطب . وقد عنيت
بنشره إدارة مجلة (الهلال) وأعدته الى قرائها حسب عادتها في اختيار الكتب
المفيدة وإهدائها اليهم . له

•••••

الاحلام

مجمعة قصائد اجتماعية وضمها الشاب الأدب : شفيق افندي معلوف وأفرغها
في قالب خيالي رشيق وزينها برسوم مائة لتلك الأخيلة فجاءت نموذجاً رائعاً من
لأدب الغض الذي يقوم على سواعد السباب الدامض .
تصفحت هذا السفر اللطيف فأنفست فيه من رقة الدساسة وجزالة اللفظ ومثانة

الأسلوب ما ينم عن بسطة في الأدب • وحذق في الصناعة • ورأيت في أضعاف
سطوره مما يؤخذ به قوله في (ص ٧) :

دعوه يزحزح عن قلبه بقية حباته الدائبة

فان للقلب حبة واحدة لا غير • وقوله في (ص ٨) :

رأيت الثريا على خدها كوشم • فصمدت في الجوز فره

فان الوشم أخضر أو أزرق لا يشبه بالثريا ولا تشبه به وقوله في الصفحة نفسها :

وعاهدتها الحب فهي أليفة - صدري وكم فرجت عني حسرة

فقد عدى عاهد الى مفولين وهي لا تلمدى الا الى واحد وقوله في (ص ١٢) :

فقلت لزوجتي ودعيني فسوف يصير الوجود هشيم

اذ لا يغتفر مثل هذه الضرورة لمثل هذا الأدب وقوله (ص ١٣) :

تهب العواصف فيها وتهمي الى صواعق هميا كوكف المطر

والهمي بمعنى السيلان لا يكون الا في سائل وليست الصواعق منه وان أر بد

بمعنى السقوط فتعوي اولى من تهمي اسلامتها من ايها ما لا يراد وقوله في (ص ٢٠) :

ونحن تضيق بنا الارض رغم - التمدد هذا على رحبها

والمعروف ان يقال على رغم • او الرغم من • وقوله في (ص ٢٧) :

ولكن تلك تلامي القرون - وهذا بلاشيه مر الثوي

فان لفظ تلاشي وبلاشي غير عربي وكأنه مولد وقوله في (ص ٣٥) :

لا دفن بين زهور الرياض على ضفة النهر الزاخر

فقد جمع فيه الزهر على زهور في هذا البيت والذي بعده وهو لا يجمع هذا

الجمع وقوله في (ص ٣٩) :

ورحت أسائل عن حلم ليلى - النيام ومن ذا مجيبي سؤلا

فلم أتبين عامل النصب في : سؤلا • وقوله في (ص ٤٩) :

لقد كنت قرب البحيرة غفلان اخبط في لجة من شجوني

فاني لم ار غفلان •

ولو سلم الكتاب بما ذكرناه وأمثاله واختير له من الرسوم ما هو أليق بالأدب